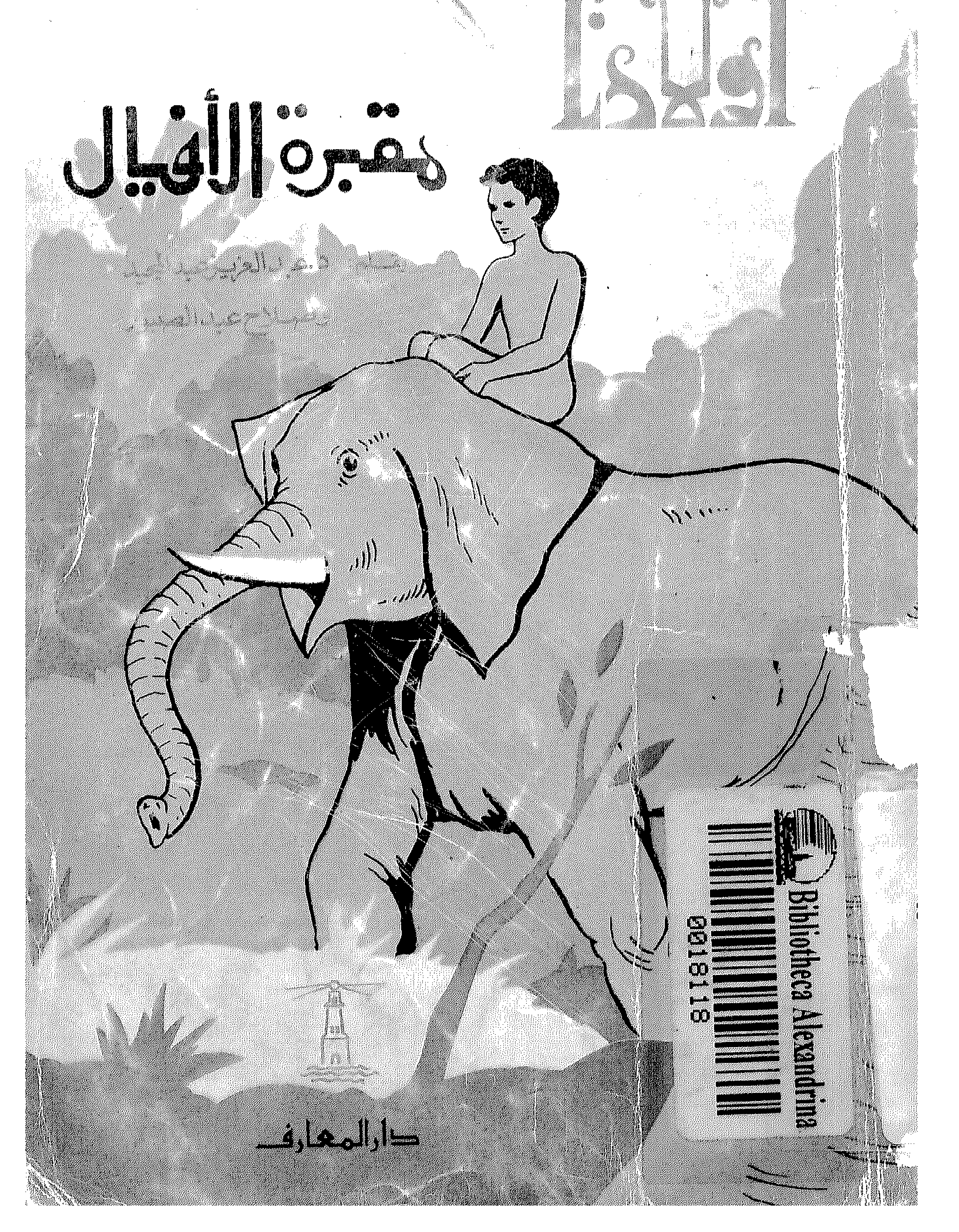

أولادنا
مقبرة الأفيال
دار المعارف

مقـبرة الأفيـال

اقرأ

١٧



ملخصة بقلم

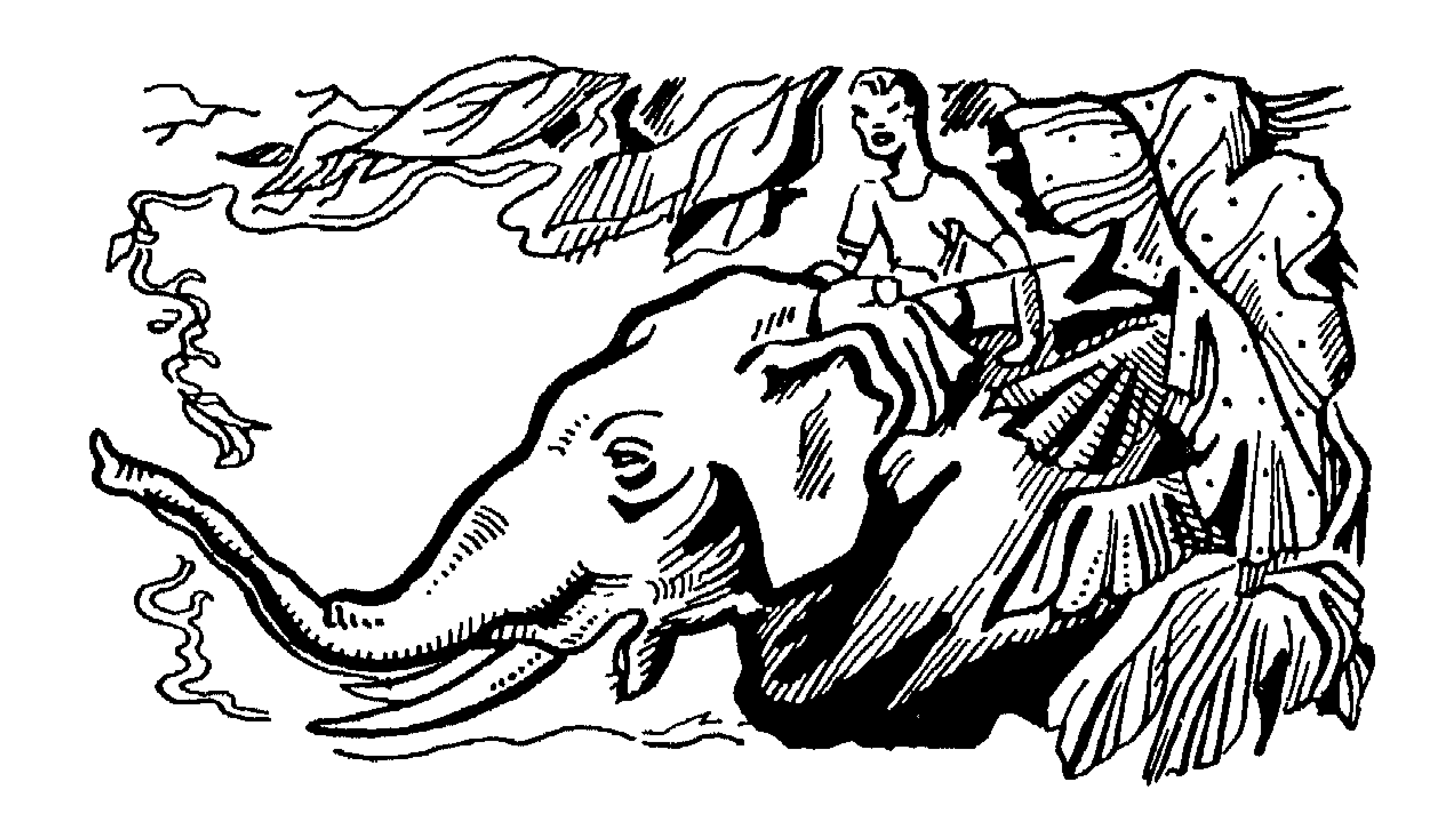
د. عبد العزيز عبد المجيد وصلاح عبد الصبور

الطبعة الثامنة



الرسوم بريشة الفنانة شهرذاد

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



حديث الغابة

فى أقصى الشمال من بلاد سيام تمتدّ مساحاتٌ شاسعة من الغابات وتجوس خلالَ هذه الغابات قطعانٌ من الأفيال ، والنمور ، والقطاط الوحشية . وفى هذه الغابات الشاسعة تجرى أنهارٌ صغيرة يرى الناظرُ إليها أسراباً من التماسيح الضخمة تتمدّد على شواطئها كأنما تلتمس الدفْءَ والشمس . ويتدلى من الفروع الضخمة نوع من القِرَدَة يسمى « الجيبون » . ولكنه لا يكاد يستقرّ بل يثبُ صائحاً من فرع إلى فرع ، ويقفز من شجرة إلى أخرى. أما الزواحف فهناك منها ثعبان « الكوبرا » أضخم الحيات السامة . وهو سريع الجرْى ، ينطلق كالرُّمح ، ويحمل

فى أنيابه الهلاك للإنسان والوحش على السواء .

وأشجار الغابة كثيفة ، متلاصقة ، ملتفة . وبرغم أنّ الشمس فى المناطق الاستوائية لا يحجبها سحابٌ ، فإنه لا يصل إلى أرض الغابة من نورها سوى قطع صغيرة متناثرة كالدنانير . ذلك لأنّ أوراق الأشجار ، وفروعها المتعانقة لا تدع منفذاً للضّوء . هذا إلى أنّ الأعشاب الطفيلية تتسلق فروع الأشجار ، فتملأ الغابة ظلاماً ووحشة .

فى تلك الغابة عاش صبى فى الثانية عشرة من عمره ؛ اسمه ساڤات . وكان يسكن مع أسرته فى كوخ صغير ، يكوّن مع عدد من الأكواخ الأخرى قريةً صغيرة من قرى سيام . وأهل سيام — من الرجال والنساء — يرتدون أثواباً قصيرة تتدلى إلى الرّكبة ، ويطلقون شعرهم إلى الوراء . أما بشرتهم فداكنةٌ فى لون البنّ الأسمر .

وكان للصبىّ ساڤات صديقٌ يقاربه فى السنّ ؛ اسمه « أونو » . وكان كوخاهما متجاورَين . وقلما افترق الصّديقان : كانا يلعبان معاً ، ويسبحان فى النهر أو يتجوّلان فى الغابة معاً . وكان أحبّ الألعاب إلى نفسيهما كرة القدم . والكرة تصنع فى سيام من أجزاء صغيرة من لبّ الغاب والبوص ؛ يضْغط منها قدْرٌ كبير ضغطاً متماسكاً حتى يستدير ويتكوّر . واللاّعب الماهر تبدو مهارته فى قدرته على الاحتفاظ بالكرة فى الهواء أطول مدّة ممكنة ، دون أن يلمسها بيده ، على حين

يباح له أن يلقفها أو يضربها بالقدم أو الرأس أو الكتفين .

وكان أبرعَ لاعبي الكرة فى القرية رجلٌ اسمه « سوك » . وهو شيخ مسنٌّ ، كان فى شبابه القويّ النشيط مروِّضاً للأفيال . فلما تقدّمت به السنّ عاد إلى القرية ليستقرّ فيها ، وليشرف على تربية ابنته الصّغيرة .

كان منظر سوك وهو يلعب الكرة شائقاً وممتعاً ؛ فهو يثبُ كالرمح ، ويتلوّى كالأفعوان . والمشاهدن له وهو يلعب يتحمسون له ، ويصفقون ، ويضحكون . وكان الأطفال يحبونه ، ويجلسون حوله فى المساء ، وهو يقصّ عليهم أطرَف الأحاديث وأعذبها . فحكى لهم عن مدينة « بانجكوك » العاصمة الجميلة ذات القصور الفخمة الزاهية ، والمعابد التى تتوهج أبراجها الذهبية . وكان يحلو له فى بعض الأمسيات أن يتحدّث عن الأفيال التى عاشرها فى شبابه ، وتمتع بمرافقتها . فيشرح للأطفال كيف تصاد الأفيال ، وكيف تستأنس .

وذات مساء جلس والتفّ حوله الأطفال ، فأخذ يقول : يبنى الصيادون حظيرة كبيرة من جذوع الشجر ، يجعلونها صفوفاً قائمة ، ويربطون بعضها إلى بعض بالحبال الغليظة . وقد يستغرق بناؤها ثلاثة أشهر . ثم يسوق جيشٌ من الرّجال قطيعاً من الفيلة أمامهم إلى الحظيرة . ويتركونها فيها مدة حتى تهدأ ، وتأنس للمكان . ويقدمون لها فى أثناء

ذلك الطعام من الحشائش والأعشاب وأوراق الأشجار ، والشراب من الماء . وبذلك لا تشعر الفيلة بالحاجة إلى ترك الحظيرة . وفى أثناء ذلك يربطون قدمىْ كلّ فيل إلى جذع شجرة مثبت فى الأرض . وبعد أسابيع تستسلم النيلة لمصيرها . ثم يأتى دوْرُ الترويض . . .

وهنا سأله ساقات : وكيف يُرَوّض الفيل ويدَرّب ؟

ولمعت عينا الرجل المسن ، وقال : أتريد — يا ولدى — أن تكون مروّض أفيال ؟ ما أجملَ هذا العمل ، وأمتعه !

واعتدل فى جلسته ، واستطرّد فى حديثه ، قائلاً بصوت رقيق : إنّ سرّ ترويض الفيل هو أن تعامله بلطف . فمنذ سنينَ بعيدة أخذَ أول فيل أسيراً ، وانتزع من غابته . وكان مروّضه رجلا وافرَ الأدب . فتقدّم إلى الفيل — بعد أن قيّده إلى شجرة ضخمة — ووقف أمامه يقول :

— يا سيد الغابة العظيم . إنك لموفور القوّة ، مكتمل الحكمة . وهأنتذا الآن قد أصبحتَ فى يد الإنسان . فمن حقه عليك أن تعاونه بقوّتك .

وكان الفيل منصتاً كأنه يتدبّر كلام الرجل . فاستطرد الصياد قائلا : ستساعدنا فى نقل جذوع الأشجار الضخمة ، ولك علينا أن نطعمك ونحافظ عليك . ولن تطلب أنت منا شيئاً إلا أتينا لك به .

والتفت إلى الأطفال حوله ، ونظر إلى « ساقات » وقال :

— ويروى الناس — يا بنى — أنّ الفيل قد اقتنع بما قاله الصياد

فردّ على كلامه مجيباً : إنى موافق على ما تقول ، وسأعمل كل جهدى لنفعكم ، ومصلحتكم . ولكن اعلموا أنه يجب أن تعاملونى بوافر الأدب .

فقال الرجل : هذا عهد بينى وبينك . وسنحافظ عليه أبد الدهر . وكان هذا الصياد — يا بنى — كلما خاطب الفيل استهل حديثه بقوله « يا سيدى » . وكان عندما يريد أن يستخدمه يبدأ بعبارة فيها رجاءٌ ولطف . ثم يغنى له أغنية يحبها وهو يربّت على كتفه . ولقد توارثنا نحن — مروضى الأفيال — أغانيها جيلا بعد جيل .

كان الصبىّ ساقات ينصت فى شغف زائد . وفجأة قال للشيخ الرّاوى . وفى صوته نبرة انفعال : غنّنا يا عمّ سوك أغنية من أغانى الأفيال .

وهنا تنحنح الرجل المسنّ متأهباً . ثم أنشد فى صوت متحشرج :

— يأيها السيد العظيم . أعن الإنسان بقوّتك ؛ فإننا نتوسل إليك . يأيها الأمير الكريم . يا سليلَ الملوكِ . ويا عاهلَ الغابة

وهنا خانه صوته فسكت . وكان ساقات فى أثناء ذلك يفكر فى نفسه : متى يصير مروّض أفيال ، ويغنى مثل هذه الأغنية . وساد الاجتماعَ لحظات من الصّمت ، كأنما كان سوك يبحث عن بقية الأغنية . ولكنه استأنف الحديث فى موضوع آخر فقال : كثيراً ما كانت النمور . والأفيال المتوحشة ، تدْهم القرية وتغزوها ،

فيخطف النمر جدياً أو حَملاً مثلاً . أو يندفع من الغابة فيل نفور فيفزع السكان ، ويحرمهم النومَ . وحينئذ يستعدّ الرجال لصدّ الحيوان المهاجم أو قتله.

وسأله ساقات : ولماذا لا نرى قطعانَ الفيلة حولنا ؟

— لقد انطلقت — يا بنىّ — بعيداً إلى جوف الغابة منذ أن مدّ الأوربيون خطوط سكة الحديد فى القرى والبلاد المجاورة للغابة . وأنت — يا ساقات — ومن فى سنك من الغلمان لا تذكرون أيام أن مدّت خطوطُ سكة الحديد لأول مرّة . ولكننى رأيت أوّل قطار سار على الخطّ . فقد كنتُ أعملُ فى الشركة التى قامت بهذا العمل .

كانت هذه الشركة تستخدم الأفيال فى نقل الأثقال . وكنت أعمل حينذاك مروّض فيلة . وكان لدىّ فيلةٌ أنثى اسمها « نامبا » . وذات يوم بينما كنتُ راكباً على ظهرها ، وهى تدحرج أمامها جذعاً ضخماً من جذوع الأشجار ملأت أنحاء الفضاء ضجّة مدَوّية ، وأقبل القطار ينفث الدّخان من مدخنته . فأخذْت أنظر فى دهشة إلى هذا الشىء الرهيب ، الذى رأيته لأول مرّة ينهب الأرض نهباً فى عجب وجبروت ؛ كأنما يجب على جميع الكائنات أن تفسح له الطريق ، وأن تطأطئ له الرءوس . ولكنّ الأفيال لم ترضَ عن هذا الأجنبىّ الغازى الذى استباحَ الغابة . فقد خرجت من بين الأشجار تتقدّمها صرخاتها المدوّية . ولما صارتَ القاطرة السوداء أمام عيونها اندفعْ فيل شجاع نحوها



مستبسلا ، وهاجمها . فاصْطدمَ بها رأسه . وكان لهذه الصدمة دويّ كالمدفع . فخرجت القاطرة ، ثمّ انقلبتْ ، واستقرّت على ظهرها كلعبة الطفل ، وظهرت عجلاتها العارية تلمع فى الفضاء .

وصرخ ساڤات : عجباً . . . عجباً ! وماذا حدث للفيل ؟

وأجاب سوك فى نغمة متأثرة : لقد مات . . . تحطمت جمجمته من أثر الصدمة ، وانطرح بجوار القاطرة . . وعظامه الآن فى متحف بانجكوك .

– وماذا فعلت الأفيال الأخرى ؟

– لقد تنبهت إلى الخطر ، وأسعفها ذكاؤها ؛ فتراجعت مهرْولة . واختفتْ فى الغابة . ومن ذلك اليوم لم يرَ أحدٌ قطيعاً من الفيلة فى هذه الأنحاء .

وأطرق ساڤات لحظة ، ثم قال :

– لقد قلت إن الفيلة التى كنت تركبها اسمها ناميا ، ألا تعرف أين هى الآن ؟ هل ماتت ؟

وأجاب سوك : لا أستطيع أن أجزم أنها ماتت . فإنّ أحداً من الناس لم ير فيلاً وهو يموت . كلّ ما نعرفه أنّ الفيل إذا أحس بمجىء الموت انطلق إلى حيث تموت الأفيال . وهذا مكانٌ لا يعرفه أحد من الناس ، لأنه سرّ من الأسرار التى يحتفظ بها الفيلة . وقد يكون هذا المكان بعيداً عن هنا بآلاف الأميال .

ـ ولماذا يحاول الناس كشفَ هذا المكان ، ويبحثون عنه ؟

ـ آه . . . تخيلْ كم طنٍّ من العاج يمكن أن يكون هناك !

وفغر ساقات فمه ، كأنما أدهشه هذا الخبر ، وسأل :

ـ وهل كان للفيلة نامبا أنياب ؟

ـ نعم ، لقد كانت طويلة الأنياب برغم أنها أنثى . وأنياب الأنثى عادةً أقصرُ من أنياب الذكر . وكان ناباها مقوَّسين . . . هكذا .

ومدّ سوك يده فتناول عصاً صغيرة ، رسم بها على الأرض خطًّا كبيراً منحنياً . ثم استطرد قائلاً : إنّ الأنياب أسنانٌ حقيقية . فعندما تتساقط الأسنان الأولى من الفيل الطفل تنبتُ له أنيابٌ طويلةٌ دائمة . وقد كان لنامبا نابان غريبان . . . حقًّا لا يوجد فى الدنيا كلها فيلٌ مثل نامبا .

وأطرق صامتاً حتى مالَ إليه الصبى ، وقال له فى صوت منخفض : حدثنى عن نامبا . . . حدّثنى وأطل الحديث ـ يا عمّ سوك ـ فإنى لمشوقٌ إلى سماعه .

واستطرد سوك قائلاً : حقًّا ـ يا بنىّ ـ لا يوجد فيلٌ فى الدّنيا مثل نامبا . فلقد كانت مطيعة وديعة . وكان الأوربيون من رجال الشركة يحبونها ، ويحيونها كلما مرّت أمامهم قائلين لها بلطف : صباحُ الخير يا نامبا . فترفع نامبا خرطومها ، وتلمس بطرفه جبهتها ، وتردّ لهم التحية فى أدب . أما اليوم الذى فارقتنى فيه فقد كان يوماً عبوساً . فى ذلك الصّباح استيقظت نامبا ، وبدا عليها القلق وضيق الصّدر . فأخذتُ أغنّى لها جميعَ الأغانى التى

تحبها ، وأداعبها بما تحبّ من التدليل . فكانتْ ترفع إلىّ خرطومها كأنها تلقى إلىّ تحية الوداع . وحين جاء طبيب الشركة أمر لها بدواء لم يُجدْ شيئاً ، ولم يجلب لها الشفاء . وفى صباح اليوم التالى فتّشنا عنها فى مكانها فلم نجدها . فقد نزعت وثاقها الذى استسلمت له أعواماً طوالاً ، وانطلقت فى الغابة .

وسأله ساقات فى حيرة : ومتى كان ذلك يا عمّ سوك ؟

— كان ذلك منذ عامين . ولقد عدت إلى القرية بعد اختفاء نامبا . . . آه يا نامبا ! لقد كنت نبيلةً أصيلة . لو تعلمين ما أصابنى من الحمى بعد فراقك !

ومدّ الشيخ بصره إلى الغابة ، وقد لمعت فى عينيه الدّموع وترقرقت .

« ناى شت » يصيد النمر

وفى أمسية أخرى جلس سوك وحوله الصّبْية . وتطرّق الحديث مرّة أخرى إلى نامبا . فسأله ساقات : هل عاش فى الغابة فيل فاق نامبا فى عظمتها ؟

— نعم ! فيل واحد يا بنىّ ! وكان ذلك الفيل أبيض . وله حكايةٌ قديمة ربما ترجع فى التاريخ إلى أيام بعيدة .

– ولكن . . . ولكن ما قصّة الفيل الذى يفوق نامبا فى العظمة ؟

– رويدك يا بنىّ . ها هى ذى القصّة : يحكى أن ملكاً من ملوك « سيام » كان يحارب جيشاً معتدياً من مملكة « بورما » . والتقى الجيشان على ظهور الأفيال . وكان حامل لواء الجيش السيامى يركب فيلا أبيض اسمه « آرون » . وفى معركة من المعارك هُزِمَ السياميون. وأصاب حاملَ اللواء سهمٌ من سهامهم، فسقطَ صريعاً ، وهوت الرّاية من يده . وكاد السياميون أن يفقدوا الأمل ، وتفرّقوا شذَرَ مذَرَ . وأخذوا يتراجعون دون نظام . وتقدّم جنود بورما وهم يصيحون صيحة الانتصار .

ورأى آرون الفيلُ الأبيضُ النبيلُ قربَ وقوع الكارثة ، فانتزع الرّاية من بين كفى الفارس الصريع . ووقف ثابتاً فى مكانه ، وقد حمل الرّاية مرَفرفةً عاليةً فى خرطومه . ولما رأى السياميون رايتهم عالية مرفرفة التأم حولها شملهم ، وقاتلوا ببسالة لا تقهر حتّى هزموا جيش بورما .

ومن ذلك اليوم أصبح الفيل الأبيض مقدّساً فى سيام . ومن ذلك اليوم اتخذ الملك لنفسه لواء جديداً عليه رسم فيل أبيض . وأصدر أمراً ملكيًّا إلى موظفيه بأنّ كلّ من يجد فيلاً أبيض فى الغابة عليه أنْ يحضره إلى الملك محفوفاً بالرّعاية والإكرام ، وأن يعاملَ هذا الفيل كأمير من الأمراء العظام .

وما كاد سوك يتمّ قصّته حتى خرجت الأمهات من الأكواخ ينادين أولادهنّ ، ويستدعينهم للعشاء . فهبّ ساقات مسرعاً ، واندفع إلى الكوخ ، ملبياً نداء أمه . فوجد أباه وإخوته جالسين حول طعام من الأرز . فثنى الغلام ركبتيه ، وجلس يأكل بأصابعه مسرعاً . وكان له صديق هو قرد أليفٌ يسمى « واوا » فأسرع هذا الصّديق وجلس على ركبتيه . وما كاد ينتهى ساقات من الطعام حتّى هبّ واقفاً ، وجرى إلى خارج الكوخ وهو يلعب بكرته . ولكن الظلام كان قد أرْخى أستاره على الغابة ، ولفّ القرية لفًّا ، اللهمّ إلا بصيصاً من النار هنا وهناك أمام بعض الأكواخ ، وإلا ناراً كبيرة كانت تشتعل فى ساحة القرية .

كانت عادة أهل القرية أن يشعلوا هذه النار فى الليالى المظلمة ليتقوا بها شرّ اقتراب الحيوانات الضّارية . وفى تلك الليلة جلس الرجال حول النار يتسلون فى وقت الفراغ بالحكايات والأحاديث . واتخذ النساء ركناً فى جانب من الحلقة المجتمعة حول هذه النار . وقد جعلن يثرْثرْن ويضحكن فى أصوات رنانة . وقد توسطّهن السيدة «كونج » العجوز .

كان الرجال يتحدّثون عن الأفيال والنمور وثعبان الكوبرا . وبرغم أن ساقات كان قد سمع أكثر الحكايات من قبل إلا أنه كان ما زال متعطشاً لحكايات الغابة . ولذلك انضمّ هو وصديقه « أونو » إلى حلقة الرجال ، وجلسا يسمعان فى هدوء وإنصات .

كن المتحدث فى تلك الليلة هو الشيخ المسنّ « ناى شت » . وهو أكبر رجال القرية سنًّا، وأكثرهم إقداماً على المغامرات فى شبابه . وكانت عيناه تدوران فى وجوه الرجال وهو يقول :

ـ أتحسبون أنه من الشجاعة أن تقتلوا النمر بالبندقية ؟ إنكم لم ترونا ونحن نصرع النمور بأيدينا . لعلكم سمعتم كيف قتلتُ نمراً وحدى بيدىّ هاتين ؛

وكان بعض الرّجال يعرف القصة . ولكن معظمهم صاحوا متحمسين ، مهللين ، مشجعين الشيخ ناى شت على أن يسرُد لهم القصّة . لقد كان أحبّ شىء إلى أهل الغابة هو سماع حكايات الصراع مع الوحوش .

واعتدل ناى شت فى مجلسه قائلا :

ـ عندما كنتُ شابًّا كنت أعيش على بعد تسعين ميلاً من هذا المكان . وكنت فى ذلك الوقت قويًّا كالثور . وذات يوم داهم قريتنا نمر . وسلب كثيراً من حيواناتنا الأليفة . وفى مرّة ثانية قتل صبيّةً صغيرة . وكان هذا النمر ضخماً بالغَ الضّخامة ، يبلغ طوله من قمة رأسه إلى نهاية الذيل ثلاثين قدماً . وأثر مخلبه فوق الأرض كبير بقدر حجم يدىّ هاتين حين تنطبقان معاً .

وكان ساقات متشوّقاً ليسمع الحكاية . فأخذ يزحف إلى أن صار

أمام ناى شت ملاصقة . ومدّ بصره نحو الغابة محدقاً كأنما يتوقع أن يرى فى الظلام عينى النمر تبرقان . وكان ناى شت يقول حينئذ : وخرجت منا جماعة كبيرة مسلحة لتقتل النمر ، برمية سهم أو طعنة رمح ، أو طلقة بندقية . ولكنه كان يهرب منا . فجمعنا رئيسنا وأنّبنا متسائلا : « هل أنتم حفنةٌ من الأطفال حتى يهزمكم نمر وحيد » ؟

وكنتُ فى ذلك الوقت أريد أن أتزوّج من ابنة هذا الرئيس . فقرّرت أن أجعل رأس النمر مهراً لها . ولذلك اتخذت طريقى — فى ذلك المساء — إلى جوف الغابة ، دون أن أخبر أحداً .

واعتدل ناى شت فى مجلسه ، وظلّ برهةً يحدّقُ فى النار صامتاً ، ثم قال ، وقد تهلل وجهه : كنت وحيداً أعزب ، فأخذت أدرس عادات النمر وحياته . وعرفت متى يذهب إلى النهر ليشرب ، وأىّ طريق يسلك . ثم كمنت له يوماً فوق شجرة ، واختبأت بين فروعها الكثيفة . وكانت الخطة التى أعددتها هى أن أطعنه بالرمح وهو سائر . ولم يمض زمن طويل حتى رأيته ينسل من بين الأشجار متقدماً نحو الماء . فرفعت الرمح ، واستعددت للطعنة . ولكنى سمعت فى تلك اللحظة خشخشةً بين أوراق الشجرة . فنظرت بمؤخر عينى ، وإذا أنا أرى حية من نوع الكوبرا ، قد فتحت شدقيها الواسعين ، وانتفضت فقفزتُ إلى الأرض عند قدمى النمر ،

وقد أفلت الرمح من يدى . ثمّ قمت واقفاً أمام النمر وكلانا يتفرّس فى الآخر . وزام النمر فى غضب زومة وحشية . ورأيت أنيابه الكبيرة البيضاء ؛ فجفّ دمى من الخوف . عندئذ تراجعت مقدار خطوة ، ولكنه زأر زأرة كالرعد المدوّى . ثم وثب علىّ . فأحنيت رأسى . وألقت بى قوة الوثبة إلى الأرض ، فارتميت تحت جسمه الضخم عاجزاً أكاد أختنق . وأفقت من هول الموقف بعد لحظة ، فأدركت أن كلّ ما أستطيع عمله هو أن ألف ذراعىّ حولَ زوره . وأخذت أضغط على رقبته بين ذراعىّ بعنف وشدّة . وكنت فى ذلك الوقت شابًّا قويًّا ، وكانت ذراعاىَ كالحديد . ولست أدرى كم ظلت المعركة قائمةً بيننا . ولكنى أذكر أنى وجدته فجأة يستلقى على جنبه ، وقد أطاق سراحى . وعلمت من النظر إليه أنه لم يمت بعد ، ولكنّ الإعياء والجهد قد أرهقاه . وفى لحظة خاطفة مددت يدى إلى الرّمح الملقى بعيداً ، وطعنته فى قلبه طعنة نجلاءَ ، كانت هى القاضية .

وما كاد ينتهى من قصّته حتّى هبت «كونج» العجوز الشمطاء قائلةً فى صوت مرتفع : لقد كنت أعظم الرّجال فى زمانك ياناى شت . ولكن مِن بين هؤلاء الجالسين مَن سيكون أعظم منك .

وضحك بعض الجالسين . . . ولكن ناى شت أشار إليهم بالسكوت قائلا : إنّ كونج تستطيع أن تتكهن بما سيحدث فى المستقبل . فدعونا نسمع ما تقول .

واستطردت العجوز الشمطاء قائلة ، وكأنها ترى رؤيا غريبة فى الفضاء الممتد أمامها : إنى أرى صبيًّا عظيمًا . . . صبيًّا من بينكم سيدخل إلى القرية راكباً على فيل أبيض ، وسيكسب الثروة والشرف العظيم . هذا الصبى هو . . .

ثم أدارت وجهها ، وقد أشارت بأحد أصابعها ، وخيل إلى سافات أنها تشير إليه . ولكنها سرعان ما خفضت يدها ، وصاحت : أسقونى . . . ماء . . . ماء .

ثم تهالكت إلى الأرض فاقدة الوعى .





متاعب وأخطار

كان موسم الجفاف قد قارب نهايته ؛ فقد مضت ستة أشهر لم تنزل فيها الأمطار . ولولا قطرات الندى التى كانت تتساقطُ ساعة السحر لاحترق كلّ شىء فى الغابة لشدّة الحرارة . وفى هذه الأيام بدأت السحب تتجمع . ولكنّ شيئاً من المطر لم يسقط بعد .

وكان ساڤات يقضى يومه فى اللعب ، أو الحديث مع سوك عن الأفيال ، ويتعلم الأغانى التى ستعينه فى المستقبل على العمل عندما يصير مروّض أفيال .

وفى ذات ليلة كان ساڤات راقداً فى جانب من الكوخ ، وقد نظر

خلال ظلام الليل إلى السقف ، وأنصت إلى الأصوات الخافتة الصادرة من الغابة . وكانت جدته وأمه تتحدّثان ، ووالده جالس إلى جوارهما فى سكون . ثم عطست الجدّة ، وتنهدت بعد ذلك قائلة : إننى أشمّ رائحة متاعب وأخطار تأتى مع الرّيح فى هذه الليلة. فأجابتّها الأم قائلة : إنك دائماً تشمين المتاعبَ والأخطار يا أماه . ولكنّ الأيام كلها تمضى متشابهة. ولن نحصد إلا ما زرعنا . فلماذا نقلق، ونحن لا نفعل إلاّ الخير ؟

وعندئذ قالت الجدة : إنى قد خلقت للمتاعب ؛ فابنى الأكبر أكله النمر وهو صغير ، وابنتى الجميلة « كاترا » قد اختفت دون أن أدرى لها مكاناً . أما الليلة فإنى أؤكد لكم أنها ستحمل لنا الكثير من المتاعب . ودارت ببصرها الزّائغ ثم قالت : إنّ أرواح الأشجار تغادرها بسرعة . وإنى لأشعر بهذه الأرواح وهى تمرّ بى خائفةً مذعورة . . . فلمَ هذا الخوف والذّعر ؟

وفجأةً انبعث من الحظيرة صرخةٌ مدوِّية . فاندفع ساڤات فى اتجاهها . ولكن أباه استوقفه قائلا : اهدأ يا ولدى . إنّ البقرة العجوز تخور من شدّة الحرارة . وحالما تنزل الأمطار سيهدأ كلّ شىء .

فقالت الجدّة العجوز فى صوت بطىء : إنّ البقرة لا تشكو الحرارة ، ولكنها تشعر بالأرواح الهاربة كما أشعر بها أنا الآن . لقد أنذرتكم : إن المتاعب قادمة مع الرياح. فصاح الوالد قائلاً : كفى عن هذه السخافات أيّها العجوز.

ثم قام متجهاً إلى الباب ، ونظر فى ظلمات الليل . واطمأن ساقات ، وأخذ يفكر فى الأفيال ومقبرتها الغامضة التى حدثه عنها سوك . وقرر أن يكتشفها يوماً ما . لابد أن بها آلاف الأنياب . وفجأة سمع دوياً مرعباً قطع عليه أفكاره اللذيذة ؛ لقد كان الرعد يقصف بعنف . وكان صوت الغابة مخيفاً كأنها تتأوه من شدة الحر . ثم هبت الرياح فجأة ، وانبعثت صرخة من فم أبيه الواقف بالباب ، واندفعت أمه متسائلة : ماذا هناك ؟

وقفز ساقات إلى جانبها ، وأشار أبوه ناحية الشرق وقال : انظرا ؛ وهج غريب فى السماء !

ونظرا فوجدا فوق قمم الأشجار البعيدة العالية ضوءاً أحمر رهيباً ، وتقطعت أنفاس الأب وهو يقول : النار ! النار !

ونظر ساقات إلى أبيه ، فوجد فى عينيه بريقاً غريباً لم يره من قبل ، كان بريق الخوف . وقالت الجدة فى صوتها البطىء : لقد قالت العجوز الحقيقة يا ولدى . إنى أعلم أن الأرواح لا تهرب من الأشجار لغير ما سبب . إنها النار . فإذا جاءت النار إلى هذا الاتجاه فإننا جميعاً سنكون رماداً قبل أن يطلع الصباح .

وخرج السكان من أكواخهم مذعورين . وأخذوا يتصايحون : الفرار ! الفرار ! النار ! النار !

وعوّت الكلاب ، وارتفعت أصوات الحيوانات فى الحظائر ، واهتزّت القرية بأصوات الاستغاثة والفزع . ولكن الجدّة العجوز وقفت قائلةً :سنحترق جميعاً . وهذا لا يهمنى ، فقد مضى زمانى ، وانتهت أيامى . ونهرها الأب ، وصاح فى الناس قائلاً : لا يزال عند أمل فى النجاة . فإذا أسرعنا حتّى نصل إلى النهر قبل أن تحيط بنا النيران نجونا . أسرعوا ! وخذوا الأطفال !

وأيقظ ساقات إخوته الصغار النيام . وخرجوا من الكوخ واحداً واحداً . وحملت الأم أصغرهم . ثم اندفعوا خلف أهل القرية . والجميع يتصايحون : النار ! النار !

وتدافع كلّ من فى الغابة من إنسان وحيوان . وفجأة سمع صوت كأنه قرْع الطبول . وكان الصوت شديداً يهزّ الأرض هزّاً . ونظر ساقات حوله ، فرأى سوك الشيخ المسنّ واقفاً ينصت إلى الصوت . ثم رفع سوك يديه إلى فمه وصاح : إنه قطيع الأفيال العظيم يحاول أن ينجو بحياته من النار تعالوا معى بعيداً عن طريقه . انجوا بحياتكم .

ثم أخذ يعدو فى الغابة ، والناس تتبعه فى خوف وذعر . وجرى ساقات خلف الجموع الهاربة . وخشىَ أن ينفصل عنهم . فأسرع فى خطاه . وفجأة اختل توازنه وسقط إلى الأرض . وتلفت متأهباً ليقوم فرأى قطيع الأفيال العظيم يعدو مسرعاً . فلم يستطع الحركة . ورقد

مذعوراً ، وكأنه قد استحال قطعة من الحجر . ورأى آلاف الأقدام تمرّ من حوله . وكاد بعض الأقدام أن يسحق رأسه ، فأغمى عليه من الرّعب ولم يعرف بعد ذلك شيئاً .

وعند ما أفاق ساڤات كان الصبح يملأ الأفق . وعجب وتساءل : لماذا ينام فى هذا المكان ؟ ثم تذكّر ما حدث فى الليلة الماضية : حريق الغابة ، وهروب الفيلة . فهب واقفاً ، وهو يشم رائحة الدخان . ولكنه لم يرّ النيران ، فعرف أنها غيرت اتجاهها . فجرى فى الغابة متجهاً نحو القرية .

وصل ساڤات إلى القرية ، وأخذ يجوس خلالها ، وينادى بأعلى صوته ، ولكن ما من مجيب . ولم يكن قد تبقى فى القرية كوخ واحد ؛ فقد حطمت الأفيال خلال هروبها كلّ شىء . ومن خلال فروع بعض الأشجار سمع صوتاً يعرفه ؛ لقد كان صوت القرد الأليف واوا الذى كان يشاركه لعبه ولهوه قبل الكارثة . وقفز القرد من فرع إلى آخر حتى استقر بين ذراعى ساڤات . وأخذ ساڤات يفكر فى الأمر . وعرف أنه يجب عليه أن يبدأ أولا فى البحث عن أهله ، وبأسرع ما يمكن ، حتى يستطيع الوصول إليهم قبل حلول الظلام . ولكن عليه أن يتزوّد أولا ببعض الطعام ثم يأخذ معه سكيناً حادّة ، لكى يشقّ بها طريقه بين الأدغال . وقد وجد السكين فى أنقاض أحد الأكواخ .

ثم أكل بعض الموز من شجرة سلمت من أقدام الأفيال ، وسار فى طريقه يتبعه واوا القرد الأليف فى مرح .

كان الطريق سهلا فى بدايته . ولكن السماء بدأت تتلبد بالغيوم . ثم أخذ الرعد يقصف محدثاً فى الغابة صدى هائلا. وابتدأت الغابة تطبق عليه شيئاً فشيئاً. وأخذ الطريق يضيق حتى امحت معالمه . وبدت له الأشجار من كل جانب كأنها جدران مخيفة لسجن ضيق . فاستل مديته ، وأخذ يعملها فى الفروع المتشابكة ليفسح لنفسه طريقاً . وكان يتقدم ببطء . واشتد هبوب الرياح ، وتمايلت أمامها الأشجار . ثم هطل المطر غزيراً فوق رأسه. ها هوذا موسم الأمطار قد بدأ . وقال لنفسه : حسن . فتلك نهاية الحريق .

نظر ساقات حوله يبحث عن مأوى يقيه المطر ، ويحميه من أخطار الثعابين التى تنساب فى الغابة ، ومن النمور التى تتربص بفرائسها . ورأى واوا وهو يثب فوق شجرة ، وكأنه يدعوه إليه ، فتساق هو الشجرة كذلك ، وقد ربط المدية فى وسطه . ثم رقد على ظهره بجانب القرد ، وقال فى نفسه : «إذا لم تلتهمنا الوحوش فى المساء فسننجو من هذه المخاطر . وربما نستطيع فى الغد أن نجد قومنا» . وبرغم قسوة الموقف كان ساقات يحس بلذة المغامرة لوجوده وحيداً وسط الأدغال.

وتساقطت الأمطار غزيرة ، كأن الماء المخزون فى السماء ستة أشهر قد اندفع مرة واحدة ، وكان الرعد يقصف والبرق يضىء الغابة .

واحس ساقات بالجوع . وتجمعت حوله جميع أسباب اليأس ؛ فهو معلق فوق فروع الأشجار والأمطار تتساقط حوله غزيرةً مندفعة ، وليس لديه طعام يسدّ به رَمقه . فأخذ يبكى ، ويئن .

وكان صوت الأمطار من العنف بدرجة لم يسمع معها أنينه . وأحس أنه لا جدْوَى من البكاء ، فتوقف . وقال مخاطباً القرد واوا : إنى جائع يا واوا فجئنى بطعام .

وكان ساقات يؤمل أن يفهم هذا الحيوان ما يريد . وكان هذا أملا منه كآمل الغريق الذى يتمسك بأوهى أسباب النجاة . ولكن القرد هزّ رأسه فى بطء ، وأغلق عينيه ، وانبطح إلى الأمام متمدداً. واستعاد ساقات شيئاً من قوته . ونظر حوله فرأى بعض أشجار الموز على مسافة قريبة من الشجرة التى يرقد عليها. فقام حذراً ، ثم هبط من الشجرة، وتوجه ناحية أشجار الموز . وكانت ثمار الشجيرات القريبة صغيرة وفجة. فاتجه نحو الموز الناضج والمطر يتساقط على رأسه . ثم جلس تحت أوراق إحدى الشجرات ، وأخذ يأكل حتى امتلأ . ولما هم بالرجوع رأى فى مواجهته أفعى ضخمة تسدّ عليه الطريق ، فوقفا لحظةً متقابلين . وعرف ساقات أن الأفعى ليست من النوع السام ، ولكنها تقتل فريستَها بأن تلتف حولها حتى تسحقها . واستعد ساقات للقائها ، وقد أمسك بالسكين فى يده . ورأى واوا هذا المنظر من فوق الشجرة، فقفز كلمح البرق، وهجم على ذيل الأفعى . وأخذ يقفز فوقها ويصرخ .

وأتت على صراخه مئات القرود من الغابة . وهجمت جميعاً على الأفعى ، فوقفت متحيرة برهة قصيرة . ثم انسحبت مسرعةإلى جحرها فى باطن الأرض . فشقّ ساقات طريقه عائداً إلى الشجرة ، وجلس بجانب واوا فى حين تجمعت القرود الأخرى حولهما ، وأخذت تقذفهما بجوز الهند . فقام إليهم واوا وخاطبهم بلغة القرود ، وأفهمهم أنه يجب عليهم ألا يقذفوا سيده بهذه الأشياء . فتفرّقوا .

وخيم الظلام على الغابة . وهدأ ساقات إلى جانب واوا ، وقد وثق أن صديقه الحميم سيحميه من أيّ خطر يتهدّده. وكانت أصوات الضفادع والحشرات ، التى خرجت من أجحارها بعد المطر ، تنبعث بنقيقها وصرصرتها كموسيقى مزعجة غريبة . فأغلق الصبى عينيه ، ونام .

استيقظ ساقات على ضوء الصباح ، وكانت الشمس ساطعة ذلك لأن الأمطار فى سيام لا تسقط طوال فصل المطر دون انقطاع ، كما فى غيرها من المناطق الاستوائية ، ولكنها تسقط فى بعض الأيام وفى أثناء الليل .

وكانت القردَة تثب مرحة بين فروع الأشجار . وتعلق واوا بأحد الفروع ، ونظر إلى ساقات كأنما يغريه أن يفعل مثله . وضحك ساقات ، وقال فى نفسه : وددْت لو أقدر على المرح واللعب مثل واوا . إن علىّ أن أملأ بطنى أولا ، ثم أشرع فى البحث عن الطريق. وهبط ساقات من أعلى الشجرة ، وأكل بعض الموز ، وشرب قدراً

من ماء المطر الذى تراكم فى ورقة كبيرة من أوراق الشجر، ثم بدأ يسير . وكان الطريق أيسر فى هذه المرة؛ فقد وجد الصبىّ أنه من الأجدى له أن يبحث عن ممر بين الأشجار المتشابكة ، بدلا من أن يعمد إلى شقّ طريق بالسكين . وأخذت الغابة تتكشف له قليلا قليلا . فوثب فوق شجرة ، وتبعه واوا ؛ ومن خلال أغصانها العالية استطاع أن يرى النهر والغابة الشاسعة ، وقد قلّ تكاثفها . وسمع ضجة تدنو منه . فظلّ ساكناً ، حتى شقّ فيل ضخم غصون الأشجار المتدلية متجهاً نحو النهر . وأخذ الفيل يصبّ من ماء النهر على جسمه بخرطومه الضخم حتى أتمّ استحمامه . ثم اتجه فى هدوء صوب الشجرة التى يجلس فوقها ساقات .

أنعم الصبىّ النظر إلى الفيل . لقد كان ضخماً ذا أنياب كبيرة منحنية . وكانت أنيابه مثل أنياب « نامبا » التى حفظ ساقات شكلها جيداً ، لكثرة ما حكى له سوك عنها . ولاحظ ساقات حلقة حول قدم الفيل ، فأيقن أنه فيل أليف. وتساءل : لم لا يكون هذا الفيل نامبا بعينها ؟ وتدلى ساقات مسرعاً ، ووثب فأصبح أمام الفيل . وصاح : نامبا ! نامبا ! اركعى يا نامبا !

وقف الفيل ساكناً ، ثم رفع خرطومه فى الهواء ، وصوّت حتى كاد قلب ساقات أن ينخلع من الخوف . وتشجع الصبى ، وكرّر النداء والأمر .

ولشدّ ما كانت دهشته عند ما أخذ الفيل يركع ببطء . عند ذلك كاد قلب ساڤات يطير من الفرح . ووثب بخفة على ظهر الفيل ، واستوى راكباً وهو يحسّ — من فرط السرور والابتهاج — كأنه ملك فوق عرشه . وانطلقت نامبا ، وأخذ ساڤات يصيح ويغنى : إلى الأمام يا نامبا . سنصل إلى أهلنا معاً يا نامبا .

ووثب واوا إلى ذراعي ساڤات ، وانطلقت القافلة الصغيرة مرحة سعيدة.

وتهادت نامبا فى سيرها ، تطأ بأقدامها الأعشاب والأغصان ، وترفع بخرطومها ما يعترض طريقها من أشجار ملقاة . وكان ساڤات مسروراً ، يهتزّ فوق ظهرها ويتأرجح لأنه لم يتعوّد ركوب الأفيال . كانت ساقاه المتدليتان تهتزّان ، وجسمه ينزلق بين حين وآخر إلى مؤخر الفيلة — لاسيما حين كانت نامبا تثب ، أو تسير سيرةً سريعة .

ولم يكن يحلو لنامبا السير إلا ليلا . أما فى النهار فقد كانت تقف ساكنة بجوار الماء ، أو تستلقى على جنبها . وعندئذ يذهب ساڤات إلى النهر ليجمع لها بعض الأعشاب الحلوة التى كانت تحب أكلها . فإذا دنا الأصيل هبت نامبا واقفة ، واعتلى ساڤات ظهرها ، وقد نام واوا بين ذراعيه . ثم ينطلق الجميع فى شعاب الغابة .

ومرّت الأيام والقافلة تشقّ طريقها فى الغابة إلى أن كان أصيل يوم بدت فيه نامبا عابسة الجبين . وعجب ساڤات لما أصابها من تغير ، وخاصّة لأنها صارت تبطئ فى سيرها . وحين أصبح الصباح ، وأخذت



الشمس ترسل أشعتها المحرقة ، ترجّل ساڤات من على ظهر نامبا ، وسار يتبعه قرده الأليف واوا صوب نهر صغير. فلما أتما استحمامهما ، واصطادا بعض السمك ، عادا إلى نامبا . وكم كانت دهشته حين لم يجدها فى مكانها ، وأجال ساڤات بصره حوله ، فلم يعثر عليها . وتبادر إلى ذهنه أنها قد تعود بعد قليل . فربما كانت قد انطلقت تضرب فى الغابة شطراً من النهار . وتوجه ثانية إلى النهر ، فاصطاد مزيداً من السمك . وكانت طريقته فى صيده أن يصنع سلة صغيرة من الاعشاب ، ويدليها فى النهر ، فتخرج السلة وقد احتوت عدداً من الأسماك .

وأشعل ساڤات ناراً صغيرة بحك حجرين صلدين أحدهما بالآخر . ثم اشتوى سمكتين كبيرتين ، وأكلهما . كل ذلك وصديقه واوا يقفز حوله مرحاً طروباً .

ومرّ اليوم فى هناءة وسرور ، وأوشكت الشمس أن تغيب . فعاد ساڤات إلى مكان نامبا ، وتفقدها فلم يجد لها أثراً . عندئذ ارتاع ، وفزع فزعاً شديداً ، وأخذ يصرخ : نامبا ! نامبا ! فلم يجبه أحد . وأوغل الليل فى الظلام ، ومدّ سدوله السوداء على الغابة . وأحس ساڤات بالوحشة والخوف ، وبعثت الوحدة فى نفسه قلقاً ورهبة . وأدرك أن نامبا كانت أنيسته ، ومبعث طمأنينته وتمنى لو وجدها . ثم أخذ يعدو فى كل اتجاه ، وهو يصيح : نامبا ! نامبا ! وأدركه التعب ، ويئس من أن يراها ثانية ، فتخير له مكاناً معشباً مستوياً ، واستلقى

عليه فأدركه النوم .

أيقن ساقات أنه لا يمكنه الاستمرار فى السير بالغابة وحيداً ، فأقام يومين فى مكانه ، وكان يعيش على السمك المشوى ، وينام مساء فى مكان معشب ، يحرسه صديقه واوا والنار التى أوقدها لتبعد عنه الوحوش .

وفى صباح اليوم الثالث كان ساقات جالساً يداعب واوا ويفكر فى أهله . وعلى حين غفلة سمع خشخشة بين الأشجار ، فأرهف سمعه . وكانت الخشخشة ترتفع رويداً رويداً ، كأنها أصوات أعشاب تتكسر وتتفرق ، ثم تسقط على الأرض ، فأيقن أن ثمة فيلا بين الأشجار . ثم انشقت الأغصان ، وأطل من بينها رأس نامبا . وصرخ سافات من شدّة الفرح : نامبا ! نامبا . ورفعت نامبا خرطومها كأنها تحييه . ومسح سافات عينيه ليتأكد مما يرى ؛ فقد كان المنظر عجيباً !

كانت نامبا تهتز ، وقد سار خلفها فيل صغير وديع . وصاح ساقات : إيه يا نامبا ! من أين لك هذا الفيل الصغير ؟ وتوقفت نامبا — ولو كانت الأفيال تبتسم لابتسمت ابتسامة عريضة — وهى تدفع وليدها أمامها ، لكى تمكن ساقات من رؤيته .

كان الفيل الصغير أبيض اللون . وظن ساقات أنه ربما دكن لونه عند ما يكبر ، حتى يصبح فى لون الأفيال الأخرى . فاقترب منه متودّداً . ولكنّ الفيل الصغير تهيبه . فمالت الأم إلى طفلها — وكأنما

تحدّثه بلغة الأفيال — وطمأنته . فوقف الفيل الصغير ساكناً ، وأخذ ساڤات يربّت عليه ويلاعبه . ومن تلك اللحظة أصبح ساڤات والفيل الصغير صديقين حميمين . فأخذا يلعبان ، ونامبا تراقبهما ، وترعاهما . واشترك واوا معهما فى اللعب والدعابة .

كانت نامبا تنادى ابنها بصوت يرنّ فى الأذن كأنه كلمة « بو » . فأعجب ساڤات هذا الاسم الجديد . وأخذ يناديه : تعالَ يا بو ؛ اذهب يا بو ؛ لا تعمل هذا يا بو ؛ ووثب واوا إلى ظهر الفيلة ، وأخذ يشدّ ذيلها ، وهى مغتاظة ، وساڤات يضحك فى فرح وحبور . ثم نزل واوا من على ظهر نامبا ، وأخذ الثلاثة يلعبون ويمرحون . ولكن الصفاء لا يدوم .

فى ذات مساء ، والقافلة فى رحلتها ، برقت عينان فى الظلام . وزأرت نامبا . ثم ظهر نمرٌ مخطط ذو عينين برّاقتين تلوح فيهما الوحشية والشراسة ، وقد كشر عن أنياب مدببة ، وتهيأ للوثوب . ورُوّع ساڤات ، وترجل من على ظهر نامبا ، ثم تسلل فتسلق شجرة قريبة ، واختفى بين أغصانها . ومدّ يده فأزاح بعض الأغصان وأخذ ينظر إلى المعركة المتوقعة . وكان قلبه يكاد يثب من الرعب . وصرخ حين رأى النمر يثبُ لكى يغرس أنيابه فى وجه نامبا ، إذ أن ظهرها لا ينفذ منه الرصاص . وكانت نامبا تتلقى وثبته كلّ مرة ، وقد رفعت خرطومها تحاول أن تلفه على جسمه . فيهوى النمر إلى الأرض متخلصاً ،

ريثما يتأهب للقفزة التالية . وظلت المعركة سجالا مرّة لناميا ، ومرة للنمر ، حتى تمكنت ناميا من أن تلف خرطومها حول النمر . وأحكمت الفيلة شد هذا القيد السميك القوى حول جسم النمر . ثم جرّته إلى الأرض ، وداسته بأقدامها . وأخيراً رفعت خرطومها ، ووقفت ساكنة ، وقد استلقى النمر أمامها صريعاً .

لم يجرؤ ساقات على النزول من الشجرة إلا بعد أن تأكد من موت النمر . ولما نزل إلى الأرض رأى ناميا تأكل الأعشاب فى هدوء وسكينة . فسرّ لنجاتها . ولكنه لما أنعم النظر وجدها مثخنة بالجراح . ولم تكن تلك الجروح غائرة ، وبرغم هذا كان واضحاً أن ناميا متألمة منها . واقترب ساقات ، وأخذ يربت على ظهرها ، ويتلمس جراحها . فنظرت إليه نظرة حنوّ وشكر . ووثب ساقات على ظهرها . ثم استأنف الجميع السير .

لم تكن ناميا كعادتها نشيطة يقظة ، بل كانت تمشى فى ضعف وتهالك . فلم تكن تستجيب لنداء ساقات ، أو تدلل ابنها كعادتها . وأخذت تتوغل فى الغابة لا تلوى على شىء ، والصبى فوق ظهرها لا يعرف إلى أين هم سائرون ، حتى تكشف وجه الغابة وظهرت قمة جرداء ، تحتها واد واسعٌ فسيح . وتوقفت ناميا برهة ، ثم رفعت خرطومها ، واستنشقت الهواء فى عنف كأنما تزيح عن صدرها عبئاً ثقيلا . ثم زأرت فاستجاب لزئيرها من الغابة خلفها أصوات عديدة من

فيَلة أخرى . ثم دوّى الفضاء بمئات الأصوات من كل فج عميق .

أخذت نامبا تهبط وساقات على ظهرها . وتوقف بو فدفعته أمه أمامها . ونظر ساقات إلى الوادى الذى كانوا ينحدرون إليه . فإذا هو سهل منبسط ، قد اختلطت صفرته وخضرته ببياض غريب . وتساءل بصوت مسموع : ترى ما هذا البياض ؟!

ومضت فى خاطره فكرة : لم لا يكون هذا المكان هو مقبرة الأفيال التى حدّثه عنها سوك الشيخ المسن . ولكنه تخوّف لهذا الخاطر ، وراح يفكر : هل معنى هذا أن نامبا ستموت.





مقبرة الأفيال

ولما وصلوا إلى الوادى اتخذت نامبا طريقها ببطء إلى نبع ماء فى وسط هذا الوادى . وهناك أدلت خرطومها ، ولكنها لم تستطع الشرب ؛ فقد كانت تكاد تهوى من الإعياء . وكانت الأفيال المختفية فى الغابة التى حول الوادى قد كفتْ عن زئيرها الرهيب . فلا حسّ ولا حركة فى أىّ اتجاه ، بل صمت مطبق . ولم يعد ساقات يسمع تغريد طيور أو خشخشة أشجار . ولم ير أية علامة للحياة سوى بعض شجيرات رفيعة ينعكس ظلها على سطح الماء . وهناك على مدى البصر ظهرت أشياء بيضاء متناثرة .

جمع ساقات أطراف شجاعته ، وأخذ ينظر إلى تلك الأشياء البيضاء ، فإذا هي أنيابٌ من العاج ، وهياكل من العظم لأفيال ضخمة ، قد اصفر بعضها من تتابع الأيام ، ولوّحته حرارة الشمس ، وبعضها ما زال أبيض ناصعاً . وتذكر الصبيّ حينذاك ما قاله للعمّ سوك ، حين حدّثه عن مقبرة الأفيال : « لكم أتمنى أن أرى هذه المقبرة ، وأن أعثر عليها ! » وتذكر أيضاً إجابة سوك له بقوله : « كم رجال قد حاولوا أن يعرفوا طريق هذه المقبرة أو يكتشفوها ، ولكن أحداً لم يصب النجاح في مسعاه ، فيعود ليحدثنا عن قصتها ومكانها » .

إذاً هذا هو المكان ؛ وهذه هي المقبرة ؛ لقد رآها بعينيه ، وعرفها . ولكن هذا حدث في أسوأ الظروف . وإنه ليتمنى الآن أن تعود الحياة إلى نامبا ، ولو كان فداؤها جميع ما على وجه الأرض من عاج .

ولاح في الأفق نسر ضخم ، ثم آخر . وامتلأ وجه السماء بالنسور . وهي تتصايح صياحاً كريهاً . فارتعد ساقات ، وأحسّ بغصّة في حلقه . وكأن واوا القرد قد أحسّ بأن شبح مأساة يرفرف في الفضاء. فقد ألقى بنفسه بين ذراعي ساقات وهو يعوى . وكانت قوى نامبا تخور لحظة بعد أخرى .

وتقدّمت نامبا بضع خطوات إلى الأمام. فزحف إليها بو الصغير . ولكنها ردّته عنها في رفق وتخاذل . وانكسر قلب الفيل الصغير ، واتجه إلى ساقات ، ولفّ خرطومه في هدوء حول قدمى الصبيّ ، وهو خائف

مذعور. ثم هوت نامبا فى إعياء . وضعفت أقدامها عن حملها، واستلقت على أحد جنبيها .

ارتاع ساڤات . وتقدم إليها وهو يحدق فى رأسها المتثاقل المتعب . وصرخ وقد لوّح بيديه يائساً : ما حكايتك يا نامبا ؟

وكان صوته مليئاً بالخوف والحزن . أما بو فتقدم إليها . وأخذ يتحكك بها كأنه يناشدها أن تهبّ واقفة . ولكن الفيلة ذات القلب الحنون كانت فى واد آخر ، فقد أغمضت عينيها ، وأخذ جسمها الضخم يهتزّ فى عنف ، وقد تدلى خرطومها وامتدّ على أديم الأرض.

ودوّى الهواء بصراخ كئيب . فمدّ الصبيّ بصره نحو السماء ؛ فإذا هى مزدحمة بالنسور الكبيرة ذات الأجنحة المرفرفة . وكان صراخها وتصايحها يبعث الرهبة فى نفس ساڤات ؛ فصرخ فى الجسد الملقى أمامه قائلا :نامبا ؛يا ملكة الأدغال. انهضى. هيا بنا نغادرهذا المكان الموحش ؛ وكأن نامبا سمعت رجاء الصبى ؛ فقد حاولت محاولة يائسة أن تنهض ، ولكن قواها خانتها . واستلقت على الأرض دون حراك . لا يختلج لها نفس .

ونظر ساڤات حوله . فإذا بو واقف ؛ وهو واجم محزون . وإذا القرد واوا قد كفّ عن قفزه وعبثه . ثم ردّ بصره إلى نامبا وقال فى صوت يائس: لمن تتركينا يا نامبا . هل تتركينا لوحوش الغابة كى تفتك بنا ؟ هل تتخلين عن حمايتنا ونحن فى أشدّ الحاجة إليك ؟

ولكن نامبا الأمّ القوية الصبور، نامبا الصديقة الشجاعة المخلصة ، كانت قد رحلت . . . رحلت إلى عالم بعيد .

واندفع ساقات بعيداً عن الجثة الملقاة ، وهو ينشج بالبكاء . ووضع أصابعه فى أذنه حتى لا يسمع صياح تلك الطيور المفترسة التى هوت على الجثة . وحزم أمره وسار نحو سفح التلّ يتبعه بو و واوا . وكان التل سهل الصعود، فأخذ ينقل رجليه حزيناً كاسف البال . وفجأة سمع صوتاً مفزعاً . لقد سمع هذا الصوت من قبل ، وهو يعرف دلالته . فهو صوت فيل غير مستأنس يضرب الأرض بقدميه ، مثلما كانت نامبا تضرب الأرض وهى غاضبة . وتردّد الصوت من كل جهة : من اليمين ومن الشمال . وعرف أن الغابة حول الوادى مليئة بالأفيال غير المستأنسة . وأدرك صدق عبارة سوك : « لم يرجع إلينا أحدٌ من مقبرة الأفيال فيحدّثنا عما فيها . إنها فى حراسة الفيلة المتوحشة . ولن ينجوَ إنسان يحاول أن يخترق الغابة التى حولها » .

ولما أدرك ساقات صعوبة موقفه ارتعد من الخوف . وتوقع الموت فى كل لحظة . فوقف على مشارف الغابة يائساً . وهو يبصر بو و واوا يقفان وراءه صامتين . ثم نظر إليهما وقال لهما : طيبا نفساً واهدأا ، فإن الأفيال لا تريدكما . إن الأفيال تريدنى أنا .

وفجأة ومضَت فكرة فى خاطر سافات ، والحاجة تفتق الأفكار . لقد رأى أن يركب بو الصغير ويتسلل وهو على ظهره فى الظلام

ومن حسن حظه أن الليل وشيك الهبوط على الغابة ، ولعل الأفيال لا تراه . وإن خانه الحظ ورأته فإن الموت السريع خير من الموت البطيء رعباً وخوفاً . فذهب إلى بو ، وربت على ظهره ، وغنى له أغنية جميلة . ثم وجه إليه الخطاب قائلا في لهجة أخوية : أنصت إليّ — أيها الأخ العزيز — فإني في حاجة إلى معونتك . فلتسمح لي أن أمتطي ظهرك حتى نعبر هذه الغابة .

ولم ينتظر ساقات حتى يرى علائم الموافقة على وجه الفيل ، بل وثب إلى ظهره فانطلق به الفيل بضع خطوات . ولكنه بعد قليل ركب رأسه ، وأخذ يثب ويحاول أن يلقي بساقات إلى الأرض . فأخذ ساقات حذره . وتمدد بجسمه كله على ظهر الفيل ولف يديه حول عنقه ، وهو يهمس له بكلمات الرجاء والاستعطاف . وأخيراً هدأ.

ولما صاروا في داخل الغابة المحيطة بالتل كان الظلام قد اشتد ، وتسللت البهجة والاطمئنان إلى قلب ساقات ؛ إذ لا شك أن الأفيال لن تراه ، ولن تتصدى له ، وهو على ظهر بو .

وتحقق ظن ساقات ، واجتازوا مخاطر الغابة المحيطة بالمقبرة في وقت قصير . وأصبحوا في قلب الغابة الكبيرة . واستمروا على هذا المنوال الذي ألفوه أسابيع : يمشون بالليل ، ويستريحون بالنهار ، فيأكلون ويلعبون . وكان بو قد أصبح طيباً وديعاً . فهو يحمل ساقات على ظهره راضياً مغتبط البال .

وذات مساء والقافلة تتوغل فى الغابة – سمع ساقات صوتاً لم يسمعه منذ أمد بعيد . ولم يكن الصوت لفيل أو نمر أو غيرهما من حيوانات الغابة ، ولكنه صوت ديك . وأدرك ساقات أن الديك دليل الحياة البشرية . فما دام هناك ديك فلا بدّ أن مع الديك دجاجاً ، ولا بدّ أن هناك بشراً حوله . ففرح ساقات فرحاً كبيراً . وأخذ يستحث الفيل على السرعة . ولكن بو كان كسولا ، كأنه لا يسمع صراخ الصبىّ . وانقطع صياح الديك . وظن ساقات – لانقطاع الصياح – أنه كان فى حلم . وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبه .

وفجأة توقف بو ، ومدّ خرطومه فى الهواء وهو يتشممّ ويستنشق أنفاساً عميقة . فاحتذى ساقات حذْوه . ولقد كانت فرحته شديدة عند ما شمّ رائحة خشب يحترق . فأخذ يحثّ الفيل على السير فى اتجاه الرائحة . وفجأة انكشفت الغابة . وانجلى وجهها عن واد واسع فى وسطه قرية صغيرة تستيقظ لتستقبل الصباح .

كانت القرية مكونة من سبعة أكواخ صغيرة . وأمام الأكواخ أطفال يلعبون . وفى ركن من الوادى كانت امرأة تغلى ماءً فى وعاء نحاسى . وبين الأكواخ كان الدجاج يجرى ويقفز وينقر الأرض . وقال ساقات لنفسه : سيان أن تكون هذه قرية أهلى أوْ لا . فالمهم أننا قد وصلنا إلى العمران . ودخل ساقات من وراء الأكواخ ، حتى أصبح فى قلب الوادى . وحين رأى الأطفال الفيل صرخوا : فيل أبيض !



فيل أبيض ! فالتفتت المرأة الواقفة حين سماعها للصوت . ونظرت إلى الفيل . ثم اندفعت تجرى نحوه وهى تهتف فى صوت مخنوق : ساقات ! ساقات !! ولدى العزيز !

وسرعان ما هرع الرجال على أثر صيحة السيدة . وكان بينهم أونو وأبوه وسوك الكبَّار وغيرهم من رجال القرية . وبينما كانت أمه تحتضنه وتقبله ، وأبوه يلاطفه كان الرجال الآخرون يمطرونه بالأسئلة :

من أين لك هذا الفيل ؟ كيف عرفت مكاننا ؟ ماذا فعلت فى الغابة ؟ وكان ساقات منصرفاً عنهم للنظر إلى الفيل الصديق . وفجآة حدث ما لم يكن بالحسبان ؛ فقد تقدَّم سوك الكبَّار نحو الفيل ، وعلى محياه أمارات التقديس والاحترام . ثم جثا أمام بو . وأخذ يتمتم بدعاء خافت . واستغرب الرجال لفعلته . وصرخ أحدهم : إن سوك قد أصابه الجنون !

فتصايح الرجال فى ضحك ودهشة . ولكن سوك نظر إليهم فى حنق وغضب ، وقال لهم وقد مدَّ قامته وأشار بيده : إنكم أنتم المجانين . ألا تعرفون أن هذا الفيل مقدَّس ؟! إنه أبيض ! ثم أخذ ينقل بصره بينهم وبين الفيل وهو يقول :

انظروا إلى جلده الزاهر فى مثل لون زهرة اللوتس ! انظروا إلى عينيهالبيضاوين كاللؤلؤة الثمينة ! أليست هذه علامات القداسة ؟!

ثم ارتفع صوته ، وصاح فيهم قائلا : اركعوا على أقدامكم أمام

هذا الفيل المقدس ؛ اركعوا كما أقول لكم ، وإلا حلّ عليكم الغضب .

وعندئذ ركع الرجال واحداً إثر الآخر . وكان ساقات فى أثناء ذلك كله مندهشاً كأنه فى حلم . أكان يتصور أن فيله الصغير العزيز مقدّس نبيل . . . يا للعجب ! حقًّا إن لون الفيل أبيض ، ولكن ربما اسودّ لونه عندما يكبر مثل القطط التى تولد فى بعض الأحيان بيضاء . . .

كانت جدته تنتحى جانباً ، فلما سمعت ما دار بين الرجال تقدّمت إليهم وقالت : هل تذكرون ما تنبأت به العجوز كونج ليلة موتها ؟

فسألتها الأم : بماذا تنبأت العجوز ؟ فقد نسيت النبوءة .

فأجابتها الجدّة قائلة : لقد قالت إن واحداً من أبناء قريتنا سيكون ثريًّا عظيماً . وسيدخل إلى قريتنا يوماً راكباً على فيل أبيض . لقد تحقق كل ما قالت ؛ وكان الصبىّ هو ابننا ساقات .

وقال الرجال مصدّقين لحديثها : حقًّا ! إنه هو ساقات .

والتفت الرجال حوله وهم يكرّرون أسئلتهم . ولكنه انسل من بينهم ، وهرع إلى أمه قائلا : أماه . أنا جوعان فأعدّى لنا الطعام . . . أنا وصديقى الفيل الأبيض المقدس .



الراهب فراباتوم

وضعت الأم أمام ابنها طعامه المفضل . فجلس إلى الأرض وأخذ يأكل الأرز بأصابعه ، على حين تجمّع الرجال فى خارج الكوخ حول بو ، وهم يصيحون صيحات السرور والشكر . فقد علموا من حديث سوك أن الفيل الأبيض هو أكثر الحيوانات قداسة ، وأن العلم السيامى تزينه صورة فيل أبيض . وقد أخبرهم سوك أيضاً أن هذا الفيل يجب أن يرسل إلى الحظائر الملكية فى بانجكوك ، مع احتفالات تليق بالأمراء . وهناك يتعهده الخدم بالرعاية ، ويقدمون إليه الطعام فى صحاف من الذهب الخالص . أما ذلك الذى جلبه من الغابة فستنهال عليه الأموال والعطايا .

وشغل هذا الحادث السعيد الذى لم يكن يتوقعه أحد أفكار أهل القرية جميعاً . فقد جلس الرجال يتحدثون عن الثروة المنتظرة التى ستكون لساقات . ولما أتم ساقات طعامه جلس بينهم فرحاً مبتهجاً . ووقفت أمه قريباً منهم ترمق ابنها بإعجاب وحنان . وكان على يمينها أخت ساقات الصغيرة «موان». وعن يسارها جدته العجوز . أما سوك فقد كان يطوف حول الفيل ، وهو يشرح للقوم محاسنه قائلا فى لهجة وديعة :

ألم أقل لكم إنه أبيض فى لون زهرة اللوتس؟ حقًّا إنه فيل ملكى . . .

واتجه سوك نحو الصبى . ووضع يده بحنان على كتفه وقال : لقد آن الأوان أن نسمع حكايتك يا ساقات .

وعندئذ هلل الرجال موافقين . وقعدوا جميعاً على الأرض حولهما ، وأبصارهم معلقة بوجه ساقات وفمه .

جلس ساقات فى سرور بين قومه وعشيرته ، وتنفس بضعة أنفاس عميقة . فشعر بالسعادة التى لا حد لها ، وأحس فى نفسه جمال الموطن الذى عاد إليه بعد غيبة طويلة ، تعرض فيها للمخاطر . وقد زاد فى سروره أن كل مظاهر الحياة حوله كانت تشبه قريتهم القديمة ، فالدجاج ما زال ينقر الأرض ، والكلاب تستلقى أمام الأكواخ ، والحيوانات تثوى بالحظائر . وتلك الوجوه التى أحبها هى هى لم تتغير ، ولا تزال تنظر إليه فى حنان . وأخيراً ها هو ذا واوا قرده الأليف ، وصاحبه فى الرحلة الخطرة ، يثب من فوق الشجرة ويرتمى بين ذراعيه . كان كل

شيء هادئاً جميلاً ، حين بدأ يحكي حكايته فقال : إنها لقصة طويلة منذ أن شبت النيران فى الغابة وخرجنا هاربين . فحين اجتاحت الأفيال قريتنا ، وكنت أعدو معكم ، سقطت على الأرض . وهممت أن أقوم فإذا الأفيال حولى فى كل اتجاه . فظللت نائماً دون حراك ، ومرّت الفيلة بأقدامها الثقيلة بجوار رأسى . . .

وقاطعته أمه — وهى تمسح عينيها بكم ثوبها — قائلة : لكم قاسينا مرارة الحزن ، وهول الآلام ،حين افتقدناك فى الصباح فلم نجدك . وقد بحثنا عنك فى كل مكان . فلما يئسنا ازداد الحزن وشبت اللوعة فى قلوبنا ، وأيقننا أننا قد فقدناك إلى الأبد .

وضحك لها ساقات واستطرد قائلا : واستيقظت فى الصباح فوجدت نفسى وحيداً فى الغابة .

وفى هذه المرة استوقفته أخته الصغيرة قائلة : هل بكيت حينئذ يا أخى ؟

فقال لها ساقات : إننى لا أبكى يا موان الصغيرة . ولست أنا الذى يبكى . ولكن واوا قفز إلىّ حينئذ من بين الأشجار ، وارتمى بين ذراعىّ وهو يبكى ويصيح . . . فقد كان واوا أكثر خوفاً منى .

وكأن واوا فى تلك اللحظة قد أحسّ أنهم يتكلمون عنه ، فقد ازداد التصاقاً بالصبىّ ، وأغمض عينيه فى استحياء ، فى حين أخذ ساقات يتحسس جلده الرمادى فى حنان . واستطرد الصبىّ يقول :

ثم وجدت موزاً فأكلت . وكنت أمشي بالنهار أنا وصديقي واوا ، فإذا جاء المساء استلقيت فوق فروع إحدى الأشجار . وكم لاقيت من المخاوف والمخاطر . فقد هاجمني ثعبان ذات مرة . وفي مرات عدة هطلت الأمطار وأوحشت الغابة . وكان طعامنا هو الموز والسمك في بعض الأحيان . ولم يبدُ لي — برغم مرور أيام كثيرة — أنني أقترب من مكانكم . وكاد اليأس أن يدركني . وقد مرّت أيام كثيرة وأنا على هذه الحال حتى وجدت نامبا .

وانتفض سوك حين سماعه اسم نامبا . وصرخ في دهشة :

نامبا ؟! وكيف كان ذلك ؟ إن هذا لا يصدّق . فقد انقضت سنون منذ أن اختفت نامبا ، مغادرة معسكر الشركة .

ولكن ساڤات أكد له أنها نامبا . فقد أخذ يصف كيف خرجت إليه من بين الأشجار . وكيف تعرف إليها وناداها فأجابته. ثم أخذ يصف شكلها وملامحها. وسوك ينظر إليه مندهشاً . ثم حكى لهم، ولسوك بصفة خاصة ، كيف اختفت نامبا ، ثم عادت ومعها طفلها الصغير .

وعندئذ استوقفه سوك صائحاً : إذاً بو هو ابن نامبا العزيزة . يا للعجب ! ويا للطرافة ! وأين نامبا الآن ؟

أجابه ساڤات في حزن : لقد ماتت . . . ذهبت إلى مقبرة الأفيال ، ثم همدت حركتها ، وخارت قواها وحلقت النسور فوق جسدها الواهن . . . ثم ماتت .

وامتدّت سحابة من الحزن على وجه سوك . وناشده قائلا : احك لى كل شيء بالتفصيل .

وأخذ الصبي يقصّ عليهم كل ما حدث له . حدثهم عن وقوفه فى مقبرة الأفيال محتاراً . وعن الأفيال التى تحيط بالمقبرة لحراستها . ثم حدّثهم عن نجاته مستلقياً على ظهر بو .

وقال له سوك : أعرفت الآن السبب فى أن أحداً لم يَعُدْ فيحدّثنا عن مقبرة الأفيال وما شاهده فيها ؟ إن الأفيال المتوحشة لا شكّ تحطم من يحاول العودة تحطيما . أيها الصبىّ إن نجاتك لمعجزة. ولكن هل تعرف الطريق إلى المقبرة يا ساقات الشجاع ؟

وأجابه ساقات قائلا : لا أعتقد أيها العم سوك أنه فى إمكانى الوصول إليها ، فإنى لم أهتم بتمييز الطريق بعلامات . والغابة كما تعلم متشابهة فى ظلامها وتشابك أشجارها .

ونظر سوك إلى الرجال وقال : إن السعيد من يستطيع أن يصل إلى هذه المقبرة ويعود منها . فلا شكّ أن فيها أطناناً من العاج .

ووجم الرجال يفكرون ، وسأل والد ساقات العم سوك قائلا : يجب أن نفكر الآن فيما نصنع بالفيل الأبيض .

وأجابه سوك : لقد ذكرتنى . سنرسل إلى حاكم المقاطعة من يخبره بهذا الخبر العظيم . وعندئذ يرسل هو حامية من الجنود لتصحب الفيل فى رحلته إلى بانجكوك . ولا شكّ أنه سيعطى الصبىّ قدراً كبيراً من المال .

واهتزّ والد ساقات فرحاً ، على حين تقدمت أمه فضمته إلى صدرها . وهى تقول: وماذا يعنينى المال ؟ إنى لا أهتم به ما دام طفلى العزيز قد عاد إلىّ سالماً .

وحينئذ كان المساء قد تقدّم ، فانصرف الجميع إلى أكواخهم . وهم يثرثرون عن هذا الحادث السعيد .

وطاب لساقات العيش فى قريته الحبيبة . واعتاد تلك الحياة الهادئة ، كأنه لم يكن منذ أيام قليلة معرضاً للمخاطر المختلفة فى الغابة . ولولا أن بو كان يذكره كل صباح بهذه الرحلة الخطرة لأوشك أن ينساها ، إلى أن جاء يوم عاف فيه بو الطعام . وقلق ساقات لحاله ، لا سيما أنه كان يرتعش ارتعاشاً شديداً حتى خيف عليه الموت . وجزع الرجال جميعاً على الفيل ، وبخاصة سوك الذى كان يقف إلى جانبه طيلة النهار وهو يهزّ رأسه فى أسًى عميق .

وسأله ساقات : أيموت الفيل ؟

فأجابه سوك : إن هذا لمما يوجع القلب . ولكن عزائى أننى قد فعلت كل ما فى وسعى لإنقاذه . فقد أوقدت ناراً ، وتضرعت بالصلوات لكى أطرد عنه الأرواح الشريرة . ولكن هذا كله كان عبثاً . إن هناك رجلا واحداً فى المملكة كلها يستطيع إنقاذ بو .

وأطرق لحظة كأنه يفكر ، ثم رفع رأسه وقال فى ثقة : أجل ! إن الراهب فراباتوم هو الوحيد الذى يستطيع أن يشفيه .

وسأله ساقات فى قلق : وأين هذا الراهب ؟ هل أستطيع أن أبحث عنه وأجده ؟

وأجابه سوك مستنكراً . هل تريد أن تبحث عنه وتجده ؟ إن العثور على ورقة شجرة ضائعة فى وسط الغابة أيسر من العثور عليه .

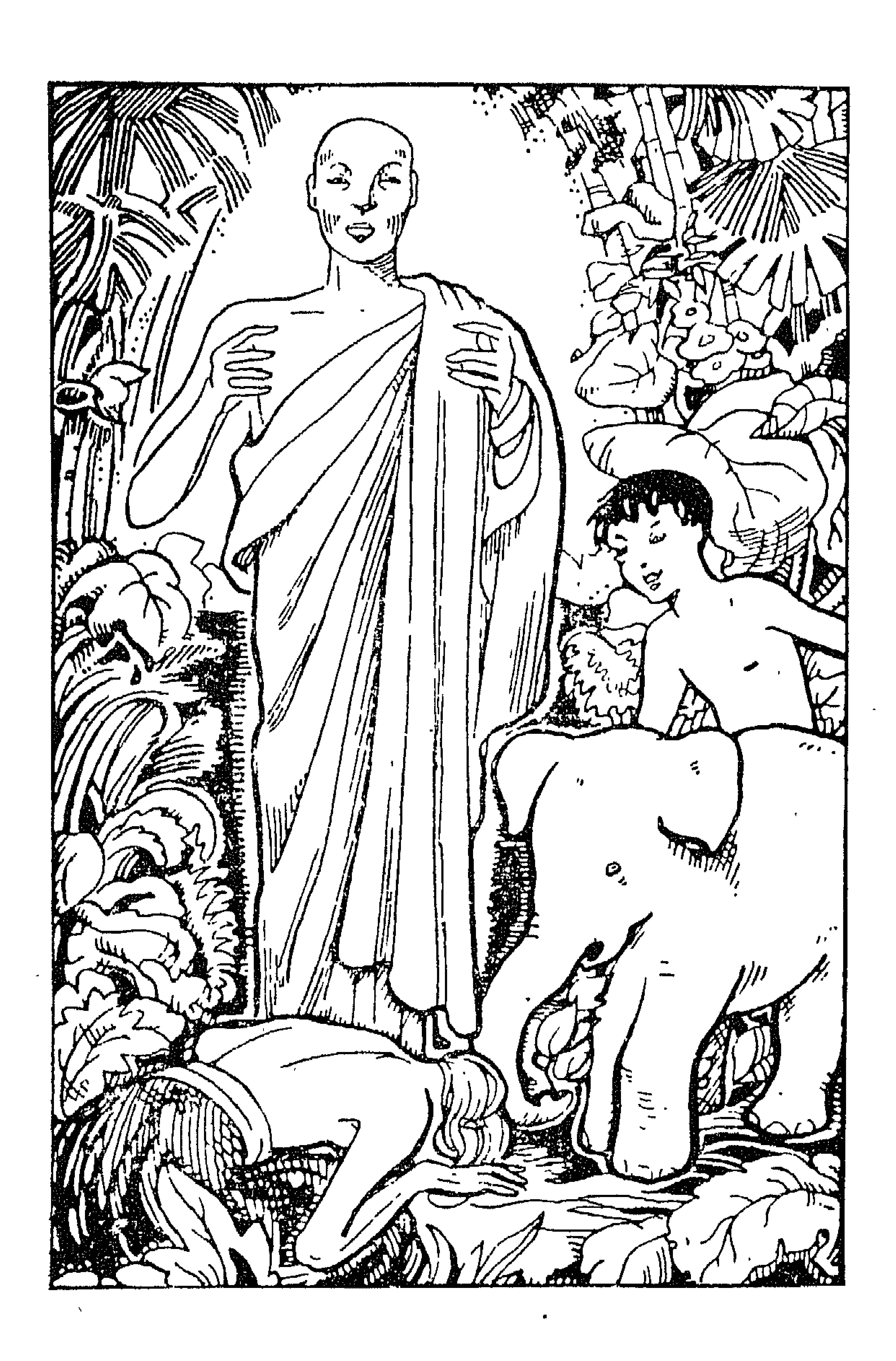
وأطرق ساقات حزيناً يائساً . ومرت حينئذ جدته وهى تحمل جرّة ماء على كتفها . فلما رأتهما واقفين نظرت إلى الفيل وقالت : سيموت الفيل الأبيض هذا المساء . فقد رأيت فى المنام أن أمه وحيدة فى العالم الآخر لا تجد من يؤنس وحشتها. وهى لذلك تطلب وحيدها .

وصرخ فيها ساقات مغيظاً : لا ! لا ! لن يموت بو .

وفى تلك اللحظة انبعث صوت غريب رهيب يقول : إن الطفل ينطق بالحق ! ونظر ساقات . إلى مصدر الصوت فرأى راهباً بوذيًّا ، قد حلق شعر رأسه ، وارتدى ثوباً أصفر زاهياً . وكان الراهب يقف على بعد خطوات منهم ، وهو ينظر إلى الفيل نظرة عطف ومودة . أما سوك فقد التفت بدوره نحو الراهب وصاح : الراهب فراباتوم ! يا للعجب ! ! كيف جئت إلى هنا ؟ لقد كنت أتمنى حضورك منذ برهة وجيزة . وهأنتذا قد حضرت . يا لحسن الحظ ! !

وأجاب الراهب فى صوت جميل هادئ تستريح إليه النفس : لقد دعوتنى فجئت إليك .

أما الجدة فقد ركعت على الأرض أمام الراهب . ثم رفعت إليه



رأسها وهى تقول : أخبرنى — أيها السيد الكريم — هل جئت على بساط الريح ؟ فقد كنت قبل ظهورك أنظر إلى موطئ قدميك . ولم يكن فوق الأرض أحد . ثم التفت فجأة فإذا بك أمامى . . . أيها السيد الكريم . . . هل هذا سحر ؟

وابتسم الراهب وهو يقول : وهل تدعون هذا سحراً . أكل ما لا تستطيعون فهمه سحر ؟ إن الأمر لأيسر من هذا . لقد عرفت أن هناك واجباً ينتظرنى ، هو إنقاذ حياة حيوان وديع . وهذا العمل بلا شك يرضى الربّ .

وفجأة صاح ساقات وهو يشير إلى الفيل : انظروا !! انظروا سريعاً !! ولما نظر الجماعة إلى حيث أشار ساقات ، رأوا الفيل الذى كان قد عاف الطعام يمدّ خرطومه إلى بعض أوراق الأشجار الملقاة على الأرض . وقد استردّ نشاطه وحيويته .

فى ذلك الوقت ، كان أهل القرية قد علموا بمجىء الراهب « فراباتوم » ، فأسرعوا وهم مسرورون ، فلما صاروا أمام الراهب وقفوا وقد رفعوا أيديهم إلى جباههم ، ثم ركعوا أمامه على عادة أهل سيام ، فردّ الراهب تحيتهم شاكراً ، وأمرهم بالوقوف . ولما وقفوا توجه إليهم سائلا — وهو يشير بأصبعه إلى ساقات : متى ولد هذا الطفل ؟

وعندئذ تقدمت أمه وقالت : لقد ولد فى عام النمر أيها السيد الكريم .

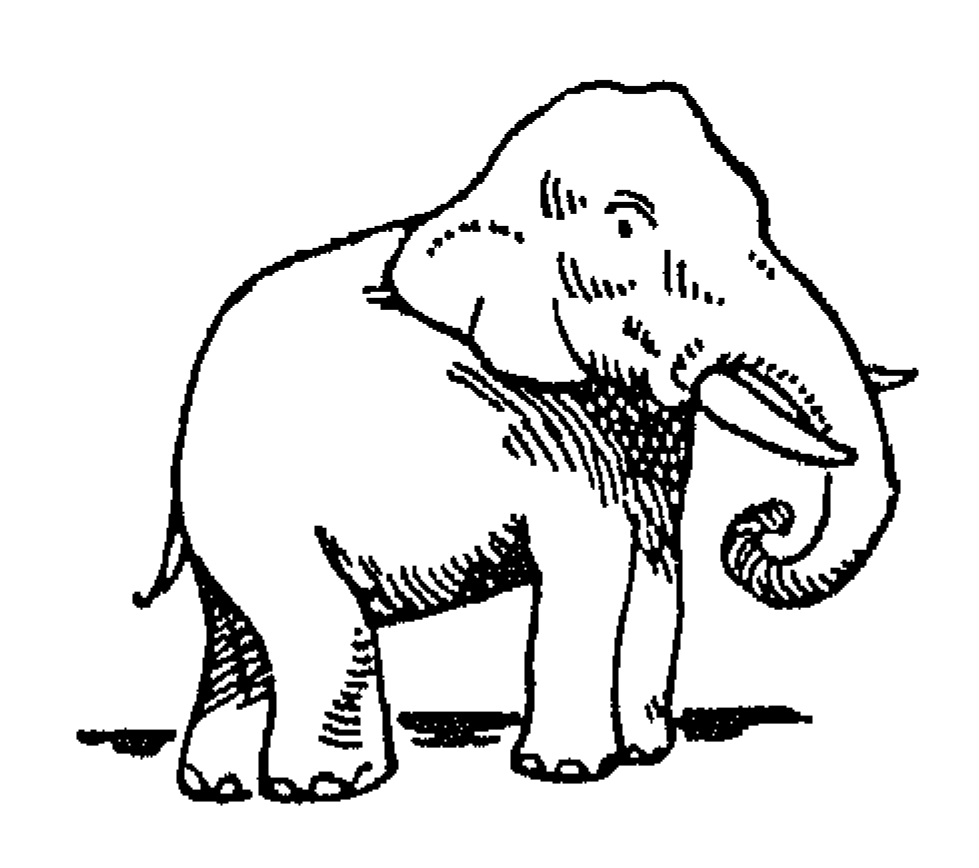
ومن عادة أهل سيام أن يطلقوا على الأعوام أسماء الحيوانات ؛ فعام يسمونه عام النمر ، وآخر عام الفيل ، وثالث عام القط وهكذا .

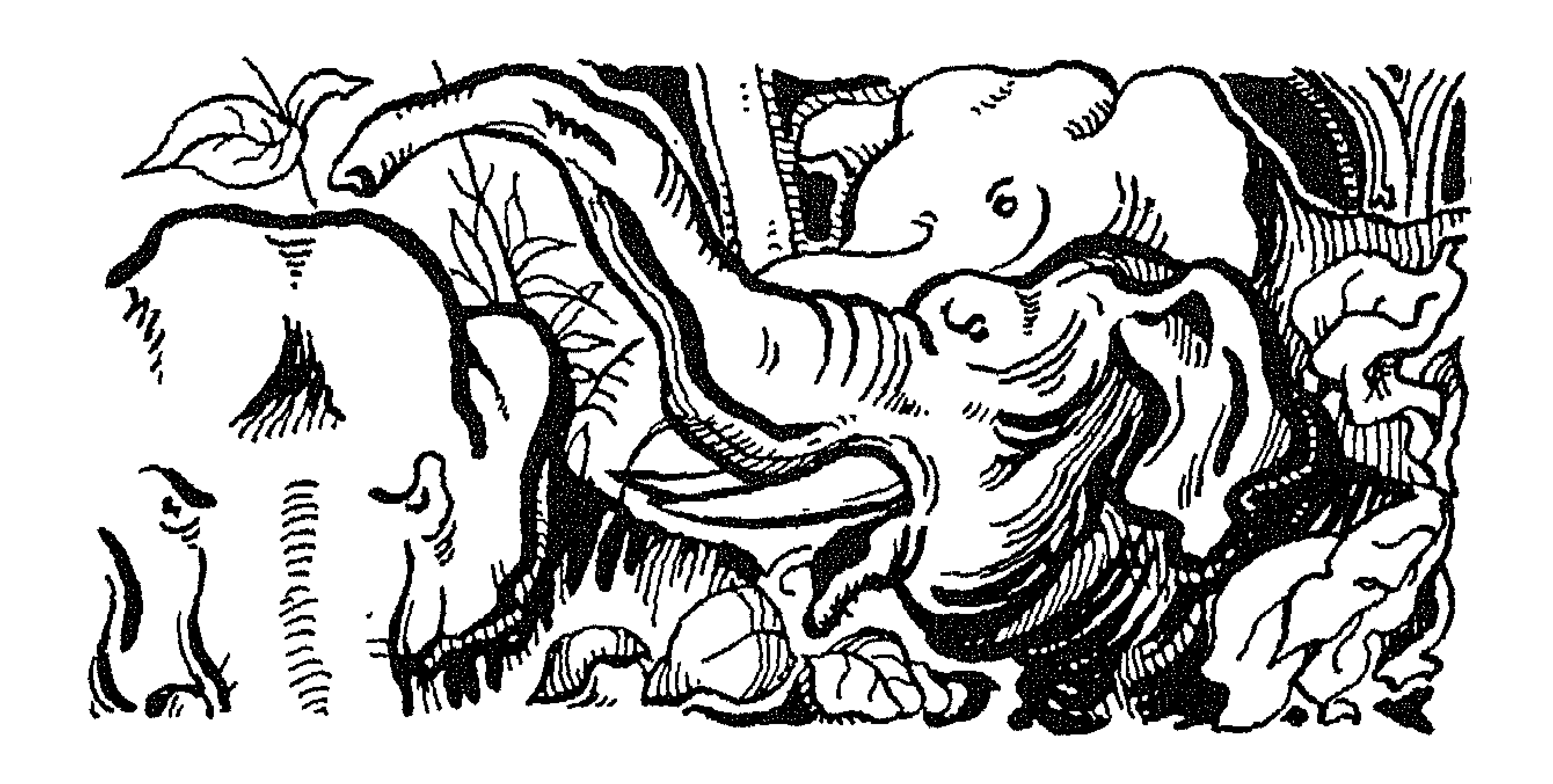
فقال الراهب :

ـ هذا عام ميمون الطالع ، وسيكون هذا الطفل مغامراً موفقاً . وسيجنى ثروة وشهرة كبيرة .

وخطا الراهب « فراباتوم » خطوتين للأمام حتى صار فى وسط الناس . وقال :

ـ والآن هذه ساعة الأطفال . فادعوا جميع أطفالكم لأحدثهم ، قبل أن أفارقكم .





التاجر الصينى

كان من النادر أن يزور القرية غريب، اللهم إلا بعض الرهبان أو القوافل المسافرة إلى الشمال . فالأسفار فى تلك البلاد يتم معظمها بطريق الماء . إذ أن طريق الماء هو أسلم الطرق لأنه يجنب القوافل مخاطر الغابة وحيواناتها .

وذات صباح كان ساڤات جالساً مع أخته الصغيرة موان أمام كوخ الأسرة . وكان حديثهما عن نبوءة الراهب . وكانت موان تسأل ساڤات عن هديتها التى سيحضرها لها عند ما يصبح ثريًّا واسع الغنى . وقال لها ساڤات إنه سيشترى لها سواراً ثميناً من الذهب . وضحكت موان وشكرت أخاها على هديته الموعودة . وما كادت موان تتمّ حديثها حتى

طرق سمعيهما صوت أفيال تشقّ الغابة متجهة إلى القرية . فأرهف الأخوان أذنيهما فإذا بصوت رجال يتحدّثون يختلط بصوت الأفيال . وسمعت كلاب القرية الصوت ، فانطلقت تنبح نباحاً متصلا . وأخذت تعدو فى اتجاه الصوت مسافة بعيدة ثم تعود وهى تواصل النباح . وبعد قليل انشقت الغصون عن قافلة يتقدّمها عشرون من الرجال ، وقد حملوا صناديق كبيرة على أعواد طويلة من الغاب مثبتة على أكتافهم العارية . فلما أصبحوا أمام الأكواخ وضعوا حملهم عن أكتافهم . وأخذوا يمسحون العرق عن جباههم المتغضنة بأكفهم النحيلة . وكان وراء الحمالين ثلاثة أفيال يحمل كل منها حملا ثقيلا . وقد جلس على رأس كل منها مروض أفيال . وسار على جانبيه رجال يرتدون مآزر من جلود الحيوانات . وأخيراً ظهر الفيل الرابع ، وكان ضخم الجثة ، ظاهر العظمة . وقد وُضع على ظهره فراشٌ وثير جلس عليه رجل صينىّ سمين مستدير الوجه . وسار أمام الفيل الضخم صينىّ آخر نحيل . ولما أصبحت القافلة جميعها أمام الأكواخ . أخذ هذا الصينى النحيل يصيح قائلا : افسحوا طريقاً للسيد النبيل «شون سون لو» . وكان يمشى محنىّ الجسم كأنما سيده هو ملك سيام نفسه . وذُعرت الكلاب والخنازير والدجاج لهذه القافلة الكبيرة . وتجمع الرجال من الأكواخ ينظرون متسائلين . ثم تقدم سوك وهو يلمس رأسه بيده علامة الاحترام على الطريقة السيامية ، واتجه إلى الصينى الضخم وقال : أهلا وسهلا

يا سيدى ؟ . وانحنى الرجل الصينى رداً لتحية سوك وقال فى صوت أجش : كيف حالك يا سيدى ؟

وقال له سوك : بخير يا سيدى. ولكن ألا تتفضل وتشاركنا طعامنا هذا المتواضع ؟

وترجل الصينىّ الضخم عن فيله . ثم تقدم إلى سوك، وقال له : إنى أشكرك . لقد اهتديت إلى قريتكم هذه بعد أن أضنتنى الأسفار . فمنذ سبعة أيام ونحن نضرب فى الغابة على غير هدًى ، بعد أن ضلّ رائدنا الغبىّ الطريق ، فنحن لا نعرف مكاننا بالتحديد . ولو سمحتم لنا أن نقيم هنا حتى نستريح كنا لكم شاكرين .

وأجابه سوك : إنه لمن حسن الحظ أن السيد النبيل قد نزل بقريتنا المتواضعة، فنحن سعداء بوجوده بيننا .

ولاحظ ساڤات أن كلا الرجلين يتحدّث بأدب جمّ . وهو ينحنى إكراماً لمحدثه . وكان الصينى يرتدى سروالا أسود لامعاً يختبّ فيه برغم جسمه الضخم . ولاحظ ساڤات أن ساقيه فى هذا السروال تشبهان ساقى الفيل . ونظر إلى وجهه فإذا وجهه الضخم يشبه وجه الفيل أيضاً ، ولكنه كان يتحرّك بنشاط وخفة برغم جسمه السمين . وكان مظهره — على أية حال — يدعو إلى الاطمئنان .

وتقدّم أحد خدم هذا الصينىّ ، ففرش له حصيرة من أوراق الجوز . فجلس الصينى عليها وأخرج من حزامه مروحة أخذ يهزّها

فى يده . والتفّ الرجال حوله . وأخذ يتكلم بسرعة غريبة قائلا :
ليس من عادتى أن أسافر مع القوافل . فقد كان هذا العبء ملقى على كاهل ابنى الأكبر ، ولكنه مرض بالحمى . وجربنا معه جميع الأدوية وأعشاب الغابة ، فلم يبرأ من مرضه ، واستحضرنا له أيضاً طبيباً أجنبيّاً ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً ، ومات منذ شهور ، وذهبت روحه لتحلق فى السماء مع أرواح أسلافه . وكان من عادته أن يقوم بهذه الرحلة إلى الشمال ليجلب بضائعنا التى نعرضها فى متجرنا بحى السامبرج .
وسأله أحد الرجال : وما نوع تجارتك أيها السيد ؟
وسكت الصينىّ لحظة وهو يهزّ المروحة فى يده . ثم نظر نظرة عميقة فى وجه محدثه . وقال فى هدوء : إنى أبيع التوابل والعاج وجلود النمر . ولكن أخبرنى : لماذا سألت هذا السؤال ؟ وما الذى يعنيك منه ؟
وأرخى الرجل السيامى عينيه خجلا . وظل صامتاً .
وفى ذلك الوقت كان رجال قافلة الصينى يعدون معسكرهم أمام الأكواخ ، فأخذوا يسوون الأرض ويرفعون جذوع الشجر . ثم أطلقوا الأفيال ترعى . وأخذت الأفيال الطليقة تنتقل حول القرية . ولما رآها بو زأر زأرة عالية لأنه كان مقيداً ولا يستطيع أن يتحرر من قيوده .
ورأى ساقات عينى الرجل الصينى تبرقان بريقاً مخيفاً وهو يقول : عجباً ! هذا فيل أبيض !! وأجابه سوك فى هدوء : أجل إنه فيل

أبيض . وقد جلبه من الغابة هذا الصبي الشجاع . وأشار إلى ساڤات .
ونظر الصينى إلى ساڤات بمؤخر عينه . ثم قال : وكيف جلبه الصبي ؟
وعندئذ انطلق سوك يحكى قصة مغامرة ساڤات . ولم يغادر صغيرة
ولا كبيرة مما حكاه له ساڤات إلا قصّها على الرجل الصينى .

وفجأة سأل الصينى : وهل أحطتم الحاكم علماً باصطياد الفيل
الأبيض ؟

ونظر الرجال بعضهم إلى بعض ، وهم متحيرون بماذا يجيبون .
ثم قال سوك : غداً سنرسل رسولا إلى حاكم المقاطعة. ولا شك أنه
سيرسل حامية من الجنود لتصاحب الفيل، وسيبعث إلى الصبي ساڤات
بهدية قيمة .

وعندئذ قال له الصينى محتدا مستنكراً : هدية قيمة !! كيف
يكون ذلك ! والفيل قد ظل بين ظهرانيكم بضعة أيام على الأقل دون
أن تخطروا الحاكم ؟ لن يرسل الحاكم هدية كما تتوقع ، وأظن أنه
سيأمر بإلقاء الغلام فى السجن جزاء له على تأخره فى إخباره . هذا إن
لم يعاقب أهل القرية جميعاً لذلك الخطأ الواضح .

وصمت الصينى برهة ليرى أثر كلامه فى وجوه الجالسين. وأخذ
يهزّ المروحة فى يده ، ثم استطرد قائلا: ماذا تصنعون إزاء هذا الخطر
الداهم ؟

وأجابه سوك : نحن يا سيدى قوم بسطاء ، لم نألف المدنية ،



ولا نعرف القانون . ولا نستطيع أن نقوم بهذا الأمر وحدنا . فإذا تكرم السيد وأنهى الخبر إلى المسئولين طالباً لنا منهم الصفح والمغفرة ، فسيكون له منا أعمق الشكر وعرفان الجميل .

وتبسم الرجل الصينى وهو يقول : لك ما تشاء ، سأقوم أنا بهذه المهمة . فإن وزير الشئون العامة فى العاصمة صديق لى . وسأرحل غداً ، وأخبره عند وصولى إلى العاصيمة مباشرة ، وألتمس لكم منه المعذرة . هذا إذا لم تكن أخبار الفيل الأبيض قد وصلت إليه بعد .

وصاح سوك وقد ذُعر من هذه الأخطار المحيقة بهم : سيدى ! ستصل سالماً إلى بانجكوك بعد أيام كثيرة ، وتقابل الوزير ، ويرسل الوزير حامية يستغرق وصولها أياماً ، فهلا أخذت الفيل معك ؟ فأنت أقدر منا على إفهامه حقيقة الوضع !

قال الصينى وعلى وجهه علامات الجدّ والاهتمام : إن اقتراحك لظاهر الحكمة يا سوك ولذلك فأنا أوافق عليه .

كان ساقات يستمع إلى هذا الحديث فى انتباه شديد . فلما قال الصينى كلامه الأخير هبّ ساقات واقفاً وهو يقول : وماذا سيكون مصير الجائزة ؟ هل ستأخذها أنت أيها السيد ؟

ونظر سوك إليه قائلاً : صبراً يا بنىّ . لقد كان هذا السؤال على طرف لسانى . وأرى أن أحدنا يجب أن يذهب مع الفيل .

وقاطعه ساقات قائلا : أنا الذى سيذهب مع الفيل أيها العم سوك .

فأينما ذهب بو فسأذهب معه .

ونظر الصينى إلى الغلام بعينيه السوداوين النافذتين ، ثم قال فى بطء وتمهل : ولكن ألا تخاف من السفر إلى العاصمة يا بنى ؟ إنها ممتلئة بالأغراب ذوى الشعر الأحمر والوجوه التى فى لون الأرز المسحوق ؛

وأجابه ساڤات : لا ! إنى لا أخاف يا سيدى .

قال الصينى : حسناً ! لقد اتفقنا على كل شىء ، وسنستعد للسفر غداً فى الفجر . وقام من على حصيره . وتقدم خادم إلى الحصير فطواه . وسار خلفه يحمله تحت إبطه . ثم توجها إلى المعسكر الذى أعده له خدمه ورجال قافلته .





فى الغابة مرة أخرى

استيقظت القرية فى الفجر لتودع القافلة المسافرة . وشغل الناس بالاستعداد والوداع . وكانت الأفيال تصوّت ، والخدم والمروضون يدفعونها إلى الساحة ، ثم يضعون على ظهرها الأحمال . أما كلاب القرية فقد كانت تعوى عواء متصلا . والدجاج يزقزق وهو ينقر فى الأرض ، ويجرى بين أقدام الأفيال والرجال .

أما أهل القرية فقد هبوا يودعون ساقات وبو عند سفرهما . وكان ساقات فرحاً مبتهجاً ، يضاحك أمه وأباه وإخوته . وجاءت جدته من الكوخ وقد أحضرت له تعويذة ليضعها حول عنقه كالحجاب قائلة : هذه التعويذة ستطرد عنك الأرواح الشريرة . وإنى لأنصحك يا ولدى

أن تصلى طوال رحلتك ، لكى تبتعد عنك الأرواح الشريرة .

وتقدمت موان أخته إليه ، وهى تبكى ، وقالت له : لا تنس أختك الصغيرة يا عزيزى ساقات . وأجابها ساقات قائلا : لن أنساك يا أختاه ، فسوف أعود يوماً ما وقد أحضرت لك من بانجكوك هدايا وتحفاً كثيرة ، سأحضر لك خاتماً ذهبيًّا وسواراً وصندوقاً مطعماً بالعاج .

وقالت الأخت ضاحكة : ولكن كل هذا غالى الثمن .

وأجابها ساقات قائلا : لا تهتمى بهذا ، فسأكون غنيًّا واسع الثروة .

وضحكت موان ، وقالت فى لهجة تهكم خفيفة : إن الأخ الصغير يتكلم كأنه رجل كبير . وعندئذ صاحت أمه . وقد ألقت بنفسها بين ذراعيه ، وأخذت تقبله وتبكى : ولكن الابن العزيز ما زال صغيراً . ولم يصبح رجلا بعد . أرجوك يا بنى ألا تذهب إلى هذه المدينة الكبيرة . فستشعر بالوحدة وأنت بعيد عن أهلك . . وربما أصابك مكروه .

وتملص ساقات من بين ذراعيها . ونظر إليها فى حب وحنان ، وقال : لا بد أن أذهب يا أمى العزيزة . فهذا قدرى ومصيرى .

وتدخل أبوه فى تلك اللحظة قائلا : خفضى من حزنك يا أيتها الأم الضعيفة القلب . إن ما يقوله الغلام صحيح . فهذه الرحلة مقدرة عليه . فلا تذرفى الدموع بلا طائل .

وبعد لحظات أطل عليهم وجه التاجر الصينى « شون » . فكفوا عن الكلام . وتأهبوا للوداع ثم صاح شون : هلم أيها الصبى .

وإذا شئت أن تعيش ، فلا يفترسك نمر أو يعتدى عليك حيوان وحشى ، فالزم جانب فيلى . ولا تبتعد عن القافلة . وصافح ساقات أهله والدموع تترقرق فى عينيه . ثم سار ووقف وراء الفيل الضخم . وكان بو الصغير يقف بجانبه . ولما استعد الجميع للسفر نادى المنادى للرحيل . وانطلقت القافلة .

ودخلت القافلة من فرجة بين الأشجار إلى الغابة وكانت تمشى وئيدة متمهلة ، فقد كان الحمالون لم يفيقوا بعد من أثر النوم . وكانت الأفيال تتهادى فى كسل . وصرخ فيها المروضون . وأخذوا يستحثونها على السير . ومن خلال الأشجار كانت أصوات القرية الخافتة تصل إلى سمع ساقات ، كان الأطفال يصيحون ، والكلاب تنبح نباحاً متصلاً . وسمع ساقات صوت واوا وهو يرسل صراخه حاداً فى أول الأمر ، ثم لا يلبث أن يخفت ليعاود الصراخ من جديد . وكان أهل ساقات قد ربطوا القرد واوا إلى جذع شجرة حتى لا يتبع القافلة . وأخذت الأصوات تهدأ رويداً رويداً حتى تلاشت ، وعلم ساقات أنهم قد أصبحوا فى جوف الغابة ، فأفاق من تأملاته . وأسرع بخطاه خلف الفيل الذى يركبه الصينى .

كان الصينى يركب فيلة ضخمة الجثة ، سوداء ، ذات أنياب كبيرة . وكان صامتاً طوال الرحلة ، إلا حين ينظر إلى خدمه ورجاله ، ويصيح فيهم فى لهجة عنيفة طالباً السرعة والعناية بالأحمال .

وعمّ الهدوء الغابة . واختفت الشمس وراء الأشجار ، وتصايحت الببغاوات وهى تؤوب إلى أعشاشها ، فعلم الرجال أن الليل على وشك الحلول . وصاح صائحهم : قفوا .. فوقف الحمالون، ووضعوا الأحمال عن أكتافهم . ثم تجمعوا وأقاموا معسكراً من الغاب يرتفع عن الأرض بضع أقدام . ثم أوقدوا حوله ناراً عظيمة ينبعث نورها فى كل اتجاه ، حتى تبتعد عنهم وحوش الغابة . ثم أطلقوا الأفيال ترعى على مقربة من المعسكر . وتفرّق الرجال بعد ذلك إلى مجموعات : فالخدم وحدهم فى مجموعة ، والحمالون فى مجموعة أخرى . فى حين جلس مروضوا الفيلة فى مجموعة ثالثة . أما شون فقد جلس وسط المعسكر على حصيره الذى فرشه له أحد خدمه .

وأحس ساقات بالوحدة . فلم يكن لديه رغبة فى أن يجلس مع إحدى هذه المجموعات . ووقف فى وسط المعسكر متحيراً . وفكر فى أن يذهب فيجلس بجوار بو حتى يزور النوم جفونه فينام . ولكن شون ناداه قائلا : أيها الصبى السيامى ! تعالَ هنا . وذهب ساقات إلى الرجل . وألقى إليه التحية . فغمغم الرجل بصوت غير مفهوم وقال له : اجلس وحدثنى عن مقبرة الأفيال. وشرح له ساقات كيف وصل إليها. وسأله شون : هل فيها عاج كثير؟ وأجابه ساقات : أكثر من أن يحصى أو يجمع. وعندئذ أخذ شون يسأله عن عدد الأفيال التى تحرسها. وكم من الرجال المسلحين يكفى لحماية القافلة . وكان

ساقات يجيبه قدْر استطاعته . وأحس الصبى برغبة ملحة فى النوم ، فى حين كان الصينى لا يزال يسأله. واشتدت الرغبة فى النوم بالصبى . فأطرق وقد أغلق عينيه ، والصينىّ يسأله عن الطريق إلى المقبرة ويلحّ فى السؤال . والغلام يجيب بإشارة من رأسه المتعب . وفجأة استغرق فى النوم .

واستيقظ فى الصباح فوجد نفسه فى مكانه أمام النار . واستأنفت القافلة سيرها . وكانت أيامُ الغابة جميعها متشابهةً . فالمناظر لا تتغيرّ . ها هى ذى الفيلة التى يركبها الصينى تمشى أمامه . وهاهو ذا بو بجانبه والحمالون ينقلون خطواتهم فى إرهاق . وهم يكادون ينوءون تحت أحمالهم الثقيلة . وكان هؤلاء الحمالون ينحدرون من ولاية بعيدة . فلهم لهجةٌ فى الحديث تختلف عن لهجة ساقات وقومه . ولكنه عرف كيف يفهم بعض حديثهم لطول العشرة وكثرة السماع . وعرف ساقات من خصال هؤلاء الحمالين أنهم لا يحبون الأسفار والمخاطرة . ويخشوْن المشى فى الغابة . فهم قد خرجوا مع الصينى طمعاً فى بعض المال .

وذات يوم ارتفعت ضجة هائلة من بين الحمالين . وسمع ساقات أصواتاً مذعورة تصيحُ : ثعبان البيثون ! ثعبان البيثون ! . وتوقف الجميع لدى سماعهم هذه الصيحة مرتاعين . وأطلّ شون من فوق هودجه ، وأصدر أمرَه إلى حاملى البنادق أن يستعدّوا لإطلاقها . ورفع هؤلاء بنادقهم إلى أكتافهم . ونظر ساقات إلى حيث يصوّبونها ، فرأى ثعباناً

ضخماً ، وقد تدلى رأسه من فرع شجرة . وأخذ يمدّ عنقه وجسمه الأفعُوانى الضخم ، حتى أصبحَ معلقاً من ذيله . وكان هناك حمال يقف حائراً باهتَ اللون تحت رأس الثعبان مباشرة .

وتأهب الثعبان ليلفّ جسمه الضخمَ حول الرجل التعيس الذى كان الذّعر قد ألجمه ، وأوقفه ساكناً كالتمثال . وعندئذ انطلقت بضعُ رصاصات ، فاستقرّت فى رأس الثعبان الذى أخذ يتلوّى . ثم اهتزّ هزّة عنيفة ، وظلّ معلقاً فى الشجرة متدلياً من ذيله كحبل غليظ .

أما الرجل التعيس الذى أنقذ بأعجوبة ، فقد أخذ ينظر ببلاهة . وكأنه قد سمّر إلى الأرض ، وكأن الدمَ قد غاض من وجهه . فلما أخذ أصحابه يهزّونه التفتَ إليهم كأنه قد أفاق لتوّه من نوم عميق .

ولما هدأ القوم أصدر شون أوامرَه أن تستأنفَ القافلةُ سيرَها . فاتجه الحمالون إلى صناديقهم التى كانوا قد وضعوها عندما ظهر الثعبان الضخم ، وكان غطاءُ أحد الصناديق قد انفرج قليلا ، فصاح الرجالُ وهم يرفعونه . . . عجباً ! هذه علب ثقاب الكبريت ! وضحك بعض الرجال فى حين غمغم الآخرون وهم يستأنفون سيرهم .

وأخذ ساقات يسائل نفسه متحيراً : ألم يقل الرجل لقومى إنه يتجر فى العاج والتوابل والجلود ؟ فلماذا تحمل القافلة علب الثقاب ؟ وقرر ساقات أن يسأل « شت لو » مروّض الفيلة الضخمة التى يركبها الصينى عن هذا الأمر الليلة ، عندما يجتمع الرجال حول النار . وحين حلّ

المساء ، واجتمع الرجال ، جدّ من الأمر ما أنساه السؤال .

أوقد الرجال النارَ كعادتهم ، وجلس المروّضون يثرثرون حولها . واقترب منهم ساقات ، وعندما همّ أن يلقىَ إليهم بالتحية سمع رجلا يقول : إنها لصفقةٌ طيبة أن يحصل شون على الفيل الأبيض . ولكن ما عساه يفعل بالصبيّ ؟

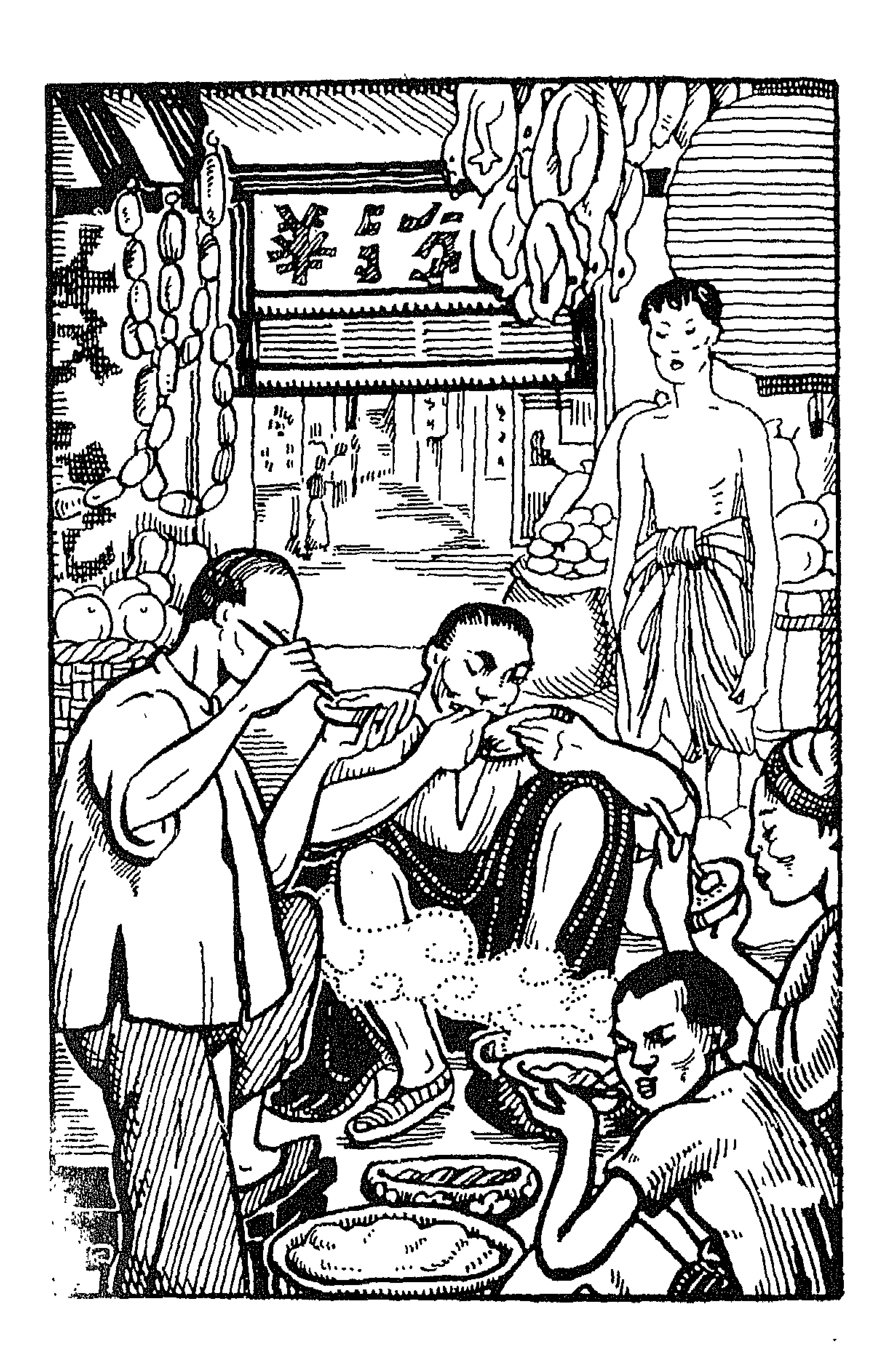
وأجابه مروض آخر : هذا أمرٌ بالغُ السهولة . سيختفى الصبيّ حين يصل شون إلى حيّ السامبرج . ولن يسمع عنه أحدٌ شيئاً بعد ذلك . فإن الرجل الصينىّ لا يحب الغلام . وبدونه سيحصل على المكافأة جميعها لنفسه .

ولما سمع ساقات هذا الحديث فضّل أن يظل مختفياً حتى يسمع بقيته . وأخذ يرْهف أذنيه . وقلبه يدقّ من الخوف والرهبة .

وقال شت لو : لن يؤذىَ الصينىّ الغلام طالما هو يعتقد أن الغلامَ قادرٌ على أن يدله على مقبرة الأفيال . فإن شون حريصٌ على العاج الذى بها ، ولن يدركه اليأس من الوصول إليها . وهو يحدّثنى طيلة النهار بشغف شديد عن تلك المقبرة .

وعندئذ أجابه رجل آخر : إننى لا أثق فى هذا الرجل . فإن له رأسَ الخنزير ومكرَ الحية الرقطاء .

وقال له شت لو هامساً : خفض من صوتك أيها الرجل لئلا يسمعك الصينىّ .



وأجابه الرجل ضاحكاً : لن يسمعنى ... فقد تعاطى كمية من الأفيون ونام نوماً عميقاً .

وامتد الصمت لحظةً حتى قطعه صوتٌ يقول : يقال إن هناك قانوناً فى سيام يحظر دخول الأفيون إليها .

وأجابه شت لو أجل فإن تعاطيه يجعل الرجال ينامون ويحلمون فلا يشتغلون ولا يقبلون على العمل .

وانبعث صوت خافتٌ من أحد أركان المعسكر ، فخفض المروّضون أصواتهم . وأخذوا يتهامسون وقد قربوا وجوههم بعضهم إلى بعض . وأرهف ساقات أذنيه ، ولكنه لم يستطع أن يتبين من كلامهم شيئاً حتى غرق فى النوم .

وفجأة ألفى نفسه يقف مذعوراً ، وقلبه يدقّ فى عنف وسرعة . فقد كانت هناك ضجةٌ عالية تنبعث من الظلماء . وكانت الضجة متصلة الدوىّ كأن عمالقة تعبرُ الغابة بأقدامها الثقيلة . فهى تدوس الأشجار فتنكسر ، ثم تلقى بها إلى الأرض . وصاح خائفاً : ما هذا ؟ فأجابه شت لو الذى كان فى تلك اللحظة يقف بجانبه : إنها أفيال متوحشة . فإذا اتجهت ناحيتنا هلكنا .

كانت الضجة عاليةً كأن حرباً نشبتْ فى الغابة . فأصوات الغاب وهو يتحطم تحت أقدام الأفيال تصدر كأنها طلقات الرصاص . وأصوات الأفيال وهى تصيح تنبعث كأنها أصواتُ طبول تدعو إلى

القتال . واجتمع الرجال حول النيران ، وهم متقطعو الأنفاس ، في حين جلس شون في أحد الأركان خائفاً يرتعد عند كل صوت .

وظلت تلك الضجة حتى قبيل الفجر . وفجأةً اختفت كما ابتدأت . فقد عبرت الأفيال إلى طريق آخر .





المؤامرة

وأشرق الصباح ، وكانت الغابة تلوح للناظر حطاماً حول المعسكر . ففى كل جهة أشجار ملقاةٌ وأعشابٌ مقتلعة من مغارسها . وهوامٌ صغيرة ميتة . أما القرود — حيوانُ الغابة الخفيفُ الظلّ المرح — فقد كان يبدو عليها الحزن الشديد لتهدّم مساكنها . ولاح لهم سرب من القردة يمشى متشابك الأيدى كأنه أطفال صغار . وكانت القرود تتجه نحو الشمال كأنها تريد أن تبحث لها عن موطن آخر . أما الحمالون فقد أخذوا يثرثرون ، ويقولون : إن الأرواح الشريرة قد هاجمت المكان . ولذلك تهجره القردة للبحث لها عن موطن تجد فيه الأمن والاستقرار .

وانطلقت القافلة . وأخذ منظرُ الغابة يتغيّر ، وتكشف وجهها عن أشجار ضخمة غليظة متفرقة بدلا من الأشجار القصيرة الكثيفة . وبين الفينة والفينة كان يلوح لهم سهلٌ أجردُ فسيح . وعند المساء سمعوا صوتاً آتياً من بعيد كأنه نعيبُ بومة . وتبسم المروض شت لو قائلا : هذا الصوت هو صوت الحصان البخارى (القطار) ! وقد أوشكت رحلتنا على النهاية . وكان عندما قال جملته الأخيرة ينظر إلى ساقات كأنه يرثى له ويُشفق عليه .

وتسلل ساقات حتى أصبح إلى جواره . ثم رفع إليه رأسه مبتسما . فربّت شت لو على كتفه وقال : خذ حذْرَك أيها الصبىّ ؛ وراقب فيلك الأبيض فإن شون قد أرسل أحد خدمه يسبقنا . ولست أفهم سبباً لذلك .

وقلق ساقات لهذا الحديث . وأخذ يفكر فى مصير نفسه ومصير بو . وظل يراقب بو ليلَ نهار ولم يغفل عنه ولكن شيئاً غريباً لم يحدث ، فعاوده الاطمئنان . وظن أن شت لو ربما كان قد أساء الفهم .

وفى ضُحى أحد الأيام انتهت القافلة إلى سهل واسع يسكنه قوم سياميون . وهُرِع هؤلاء الناسُ حين رأوا الفيل الأبيض . والتفوا حوله وهم يركعون . ولكن شو نهرهم . وأمر خدّامه أن يبعدوا الناس عن الفيل الأبيض . وكان شون قلقاً ضجراً بكل شىء . كأنما يتوقع حادثاً ما . وفجأة برزت من الغابة قافلةٌ أخرى تتوسطها مركبة كبيرة

يجرها بغلان ، وكان الخدم يلهبون البغلين بالسياط . ووقفت المركبة ، وترجل عنها رجل صينيّ . وتقدّم هذا الرجل إلى شون فنزل شون عن فيله . وأخذ الرجلان ينحنى كل منهما للآخر. وهما يتبادلان ألفاظ التحية والمجاملة بلغتهما الصينية .

ورفع الحمالون أحمالهم ووضعوها على العربة ، وأخذوا أجورهم ؛ وبذلك انتهت مهمتهم وانطلقوا فى الغابة . وانطلقت الأفيال ترعى ، وتفرّق المروّضون خلفها ، وبقى ساقات وحيداً مع الرجلين الصينيين وسائق العربة الغرباء .

وكان بو هو محورَ حديث السائقين . قال أحدهم : لم أرَ طول عمرى فيلاً أبيض بهذا الجمال . لا شك أن هذا الفيلَ سليلُ ذلك الملاك البرهميّ الذى تتحدث عنه الأساطير .

وأجابه آخر : إن هذا الفيل يساوى وزْنه ذهباً .

وقال ثالثهم : أجلْ ؛ إنه ليساوى هذا وأكثر .

ثم نظروا باحترام عميق إلى ساقات ، وهو فى مكانه قرب بو .

أما الصينيان فقد جلسا متجاورَين ، وأخذا يتحدّثان وعلى وجهيهما علامات الجدّ والاهتمام . وبرغم أن ساقات لا يفهم الصّينية فقد أمكنه أن يلتقطَ بضْعَ كلمات عن بو ، وعن علب الثقاب . ودَهش ساقات لمَ يتحدثان عن علب الثقاب ، ولم يحمل الصينى هذه العلب فى تجارته ؟!

وبعد برهة وجيزة ناداه شون فى صوت حادّ . ونظر ساقات إلى

بو لكى يتأكد أنه ما زال مقيداً إلى سجرته . ثم اتجه إليهما . وركع على قدميه محيياً على الطريقة السيامية .

خاطبه شون قائلا : إن هذا السيد الكريم « سبخ » يريد أن يعرف قصة مخاطراتك فى الغابة. ولما أخبرته أنك مثل الثور الغبى لا تستطيع أن تتذكر الطريق إلى مكان مقبرة الأفيال ، ظننى أمزح ، وقال إن أى ثور غبى يستطيع أن يعرف الطريق التى سلكها فى الغابة .

وظل ساقات صامتاً ، ونظر إلى وجه سبخ فى إمعان . كان سبخ رجلاً نحيفاً بقدر ما كان شون سميناً . وكان فوق فمه شاربان متدليان رفيعان ، وكان وجهه شاحباً ، وكفاه معروقتين نحيلتين ككفى قرد .

وأخذ الصينيان يستجوبان ساقات عن الطريق إلى مقبرة الأفيال ، وهما يهددانه تارة ، ويمنيانه بالجائزة تارة أخرى ، حتى عجز ساقات عن الإجابة ، وظل حائراً لا يدرى ماذا يقول .

وأخيراً أومأ سبخ بيده كأنه قد انهزم ، وقال : إنك لعلى صواب — أيها السيد شون — فهذا الصبى إما أن يكون شديد الغباء ، وإما أن يكون مصمماً على الإنكار ، ولا حيلة لنا فيه . ولن نستطيع معه شيئاً .

وتنحنح شون وبصق . ثم قال كلاماً بالصينية سر له سبخ ، وضحك حتى برزت أسنانه الصفراء ثم قال : نعم ، أعطه جرعة من الشراب فربما نام .

وكان ساقات متعباً . وخيل إليه أنه لو ترك وشأنه دون جرْعة الشراب لغرق فى النوم لتوه . . . ولكنه تناول الكأس التى قدّمها له سبح دون ممانعة ، وشربها . وكان طعمُ هذا الشراب كالماء تشوبه بعض مرارة . وكان الرجلان يحدّقان فى وجه ساقات وهو يشرب . وبعد أن تجرّع الكأس أحسّ بدوار فى رأسه ، ثم رأى كأن مئات من الوجوه الصينية تحدّق فيه من كل اتجاه . وأخذت هذه الوجوه تمتدّ وتكبرُ ثم تصغر حتى تصبحَ كرأس الدبوس . وكانت أطرافه كأنها مثقلةٌ بالرّصاص . وحاول أن يصيحَ فلم يستطع كأن لسانه قد أصبح قطعةً من الجلد . وسمعَ — وكأنه فى حلم — صوت شون يقول : لقد أعطيته كثيراً من الشراب يا سيد سبخ . وإنى لأخشى عليه أن يموت ، ولم يحنْ أوان ذلك بعد . فإنى أطمع آن أعرف منه طريق مقبرة الأفيال.

وأحسّ ساقات كأن لهباً يخرج من رأسه وأذنيه ؛ وأن جسمه ثقيلٌ مقيد إلى الأرض . ثم لم يدر شيئاً بعد ذلك .

وحين فتح ساقات عينيه كان فى عالم آخر ، فقد كانت الضجة تملأ أذنيه ، وكان ملقى فى ركن من مكان يشبه الحجرة الصغيرة . ولهذه الحجرة نوافذُ صغيرةٌ عالية ، رآها وهو يفتح عينيه ليتبين المكان ولكنه كان متعباً ، فأغمض عينيه مرة ثانية . ثم فتحهما وظل يُحدّق فى السقف . وعندما أرخى بصره رأى رجلا صينيًّا مسنًّا يجلس على كرسىّ قبالته . ولما التقت عينا الرجل بعينيه قال له الرجل وهو

يبتسم : لقد نمت نوماً طويلا أيها الغلام!

ولم يجبه ساقات . فقد كانت الدهشة تتملكه . فمن خلف نوافذ هذه الحجرة كان العالم يلوح له كأنه يجرى! حقول وأنهار ومعابد ذات قباب مذهبة . وكلها تجرى أمامه بسرعة . وضحك الصينىّ حين رأى دهشة ساقات وحيرته . وسأله قائلا : ما رأيك فى ركوب الحصان البخارى ؟

وسأله ساقات : كيف جئت إلى هنا ؟ وأين بو ؟ وهزّ الصبى كتفيه قائلا : لا علمَ لى بهذا الأمر . إننى مجرد حارس. وقد وُكلَ إلىّ أمر حراستك . ولكنك منذ جئت إلى هنا وأنت نائم . ثم مدّ الصينى يده إلى حقيبة كانت بجانبه ، وأخرج منها سروالا أسود قصيراً ومعطفاً أبيض وهو يقول : لقد أمر السيد شون أن ترتدى هذه الملابس ، فلا يصح أن تنزل إلى المدينة بمظهرك هذا كقطّ برىّ متوحش .

وارتعد ساقات وهو يتميز من الغضب والخوف ، واندفع إلى الباب المقفل ، وأخذ يحاول فتحه وهو يصيح : دعونى أخرج ! دعونى أخرج ! أين بو ؟ أريد بو ! !

ولكن الباب كان محكم الإغلاق . فأخذ الصبىّ يدقّ بكلتا يديه على الباب وهو يصرخ وفجأة فتح الباب ، وأطل منه وجه شون الغاضب صائحاً : اخرس أيها الغلام ! ما هذه الضجة ؟

ثم تقدم شون حتى صار فى وسط الحجرة ، بعد أن أغلق الباب وراءه .

ورجاه ساقات قائلا : دعنى أخرج أيها السيد شون . سأفعل كل ما تأمر به إذا تركتنى أخرج لأرى بو .

وأجابه شون فى برود : لقد كنتُ مخطئاً فى حسن ظنى فيك . فإنك ولد مهمل وقد نمت وتركت بو ، فانطلق الفيل فى الغابة . ولم يره أحد بعد ذلك .

وصرخ ساقات مغتاظاً : لقد اختفى بو لأنك سرقته . . . إنك لص أيها السيد العظيم شون سون لو . . . ومهرب أيضاً . . . أتذكر علب الثقاب ؟ . . . أتذكر ! !

وكان أثر كلامه لا يخطر على البال . فقد تقدم إليه شون ، وقد انتفخت أوداجه غضباً ، وظهر الرعب فى عينيه ، وقال له فى صوت يشبه فحيح الأفعى : أيها الصبىّ التعس : إياك أن تذكر علب الثقاب مرةً ثانية ، وإلا فسأمزق جسمك بيدى هاتين ، وألقى ببقاياك فى النهر .

وحدّق ساقات خائفاً فى وجه الرجل الصينى . وكان يبدو عليه كأنه سينفذ تهديده . ولكنه نظر إلى الحارس الذى كان يتتبع المنظر ، وهمهم ببضع كلمات صينية . ثم استدار ليمضى عنهما ومدّ يده ففتح الباب .

وقال له ساقات : لحظة أيها السيد شون . إذا كان الفيل قد اختفى فكيف إذن سأتسلم المكافأة ؟

وأجابه شون : ليس هناك مكافأة ولا ما يشبهها بعد . وإذا أردت

أن تعيش فينبغي عليك أن تعمل فى متجرى حتى تجد اللقمة والكساء .
وحين انتهى من كلامه غادر العربة ، ودفع الباب خلفه ، ثم أغلقه من الخارج بالمزلاج .

وعند الغروب دخل القطار إلى محطة بانجكوك. وكانت المحطة تموج بالناس من مختلف الأجناس كأنها خلية النحل . فمنهم الهنود وقد اشتملوا بأرديتهم البيضاء الواسعة ، وتدلت أطراف معاطفهم حول أقدامهم البنية الناحلة . ومنهم الموظفون السياميون فى حلل زرقاء رسمية مزينة بأشرطة من القماش ملفوفة حول خصورهم . وكان هناك عمال من الولايات الشمالية بمظهرهم المتوحش . وتناثر على الرصيف بعض اليابانيين ، وهم يرتدون أثواباً رمادية أو سوداء ، ونعالا غليظة من الخشب ؛ وقليل من الإنجليز يلبسون حللا خاكية اللون . ويتصايحون ، وهم يودع بعضهم بعضاً :

إلى اللقاء ! إلى اللقاء ! لا تنسَ الخطابات أيها الصديق القديم .

ولما توقف القطار نزل شون ، وقد أخذ ساقات فى يده ، ثم حيا مستقبليه من الأصدقاء والخدم ، وهو يحاذر أن يفلت الصبيّ من يده . وشقّ الاثنان طريقهما — وكانت الأضواء الوهاجة تنبعث من بناية عالية — فاضطر الصبي أن يُغمض عينيه ؛ فهو لم يعتد هذه الأنوار اللامعة . وكان يمشي ذاهلا كأنه فى حلم ؛ يتلفت يمنةً ويسرةً كلما سمع صوتاً لم يألفه . . . كان يمشي كأنه حيوان فى غابة .

وكان الميدان المقابل لمحطة بانجكوك مزدحماً بالمركبات من كل نوع . فمن سيارات تتقدمها مصابيحُ برّاقةُ الضوء كأنها عيون غيلان ، إلى مركبات تجرّها الخيل ، إلى عربات يجرها صينيون ، وهم يصيحون صيحتهم التقليدية : هوب ! هوب !

أما شون فقد كانت عربته الفخمة تنتظره . وحاول الصبى محاولةً يائسة أن يمتنع عن الركوب حين فتح السائق باب العربة ، ولكن شون ضغط على معصمه حتى صرخ من الألم ، ودفعه إلى العربة بعنف وهو يقول : تذكر أيها الصبى ما سبق أن قلته لك ؛ فإننى لا أمزح .

جلس ساقات بجوار شون . وبعد قليل زال عنه الخوف ، ووجد فى الطريق ما يجذب انتباهه ؛ فمن محالٍّ تجارية مضاءة ، إلى بنايات كبيرة من الحجر ظنها ساقات قصوراً للملك ، ولكنها كانت فى الواقع بيوتاً تجارية أوربية . ولما أنعم النظر رأى لها واجهات فخمةً من الزجاج فيها سلعٌ غريبة لا يعرف أسماءها أو وجوه استعمالها .

أما شون فقد أخذ يتحدّث إلى الصينيين الذين يركبون معه . وظن ساقات أنه سمع كلمة « الفيل الأبيض » تدور على لسان أحدهم . ولكنه سرعان ما كذّب ظنه ، لأن الكلمة لم تتكرر .

وأخذ ساقات يفكر فى بو المسكين . ترى أين هو الآن ؟ أهو فى الغابة كما يقول الصينى ؟ أم ترى سرقه الصينى ليستأثر وحده بالمكافأة ؟ ! وعندما فكر فى الغابة وثب خاطره إلى أسرته وأمه وأبيه .

وفكر فى أنهم لابدّ جالسون الآن حول النار ، وهم يتذكرونه ، ويتمنون أن يكون قد أصاب النعمة والسعادة التى وُعد بها . وربما لم يخطر لهم على بال ما هو فيه من التعاسة والشدة . وأخذ يسائل نفسه : أتراه عائداً إليهم يوماً ما ، أم أن حياته ستنتهى فى هذه الأرض الغريبة ؟ !

وانحرفت السيارة إلى اليسار ، واندفعت فى شارع ضيق ، ولكنه كان مناراً بمصابيحَ غازية كثيرة ، ومزدحمَ الجانبين بالمتاجر . وكانت هذه المتاجر تختلف عن المتاجر التى رآها قرب المحطة فى أنها ضيقة غير مرتبة . وكان يجلس أمامها صينيون كسالى . وعرف ساڤات أن هذا الحىّ هو حىّ الصينيين المسمى بحى « السامبرج » .

ووقفت السيارة عندما ضاق الشارع وتعرج ، ونزل شون ، وأخذ الغلامَ فى يده ، ثم انطلقا فى الزحام . وامتلأ قلب ساڤات بالخوف والرهبة . فحاول أن يقفَ ويَفكّ إساره . ولكنّ الصينى نهره قائلا : لا تنسَ أيها الصبىّ أنك الآن فى يدى . وإذا هربت فلن تجد لك مكاناً يؤويك . وسيقتلك الصينيون فى هذا الحىّ . واعلم أنى أستطيع أن أسحقك سحقاً إذا أردت .

ونظر ساڤات حوله فى يأس ، كأنه يتلمس مُنقذاً من هذا الكابوس المزعج ، ولكن عبثاً ؛ فكل من حوله صينيون . ولكنه أحسّ فجأة كأن شخصاً يسير بجانبه من الناحية الأخرى والتفت فلم يجد أحداً .

ولكنه سمع صوتاً يقول : لا تخف يا ولدى ! فلن يصيبك ضرر أو أذى ، وسأكون بجانبك عندما تريدنى . وكان الصوت يشبه صوت الراهب « فراباتوم »

وعندئذ اطمأن ساڤات .





الحياة فى منزل الصينى

وبدأت حياةٌ جديدة ، فى منزل التاجر الصينى شون سون لو فى حى السامبرج ، وكان ساقات سجيناً مستعبداً يعمل طيلة النهار فى المتجر . وكان المتجر فى شارع جانبى متفرّع من شارع السامبرج اسمه « شارع المصابيح » . ولم تكن بالمتجر نوافذ . وبابه ضيق مزدحم بأكياس من القِنَّب مملوءة بالسلع . فإذا دخل الزائر من الباب مرّ بأكوام من الخضر والفاكهة والأسماك المحفوظة ، ثم كُتَل معلقة من اللحوم وحبال من أمعاء الخنازير . وفى ركن من المتجر تصطفّ صناديق التوابل ، وعلى الحوائط علقت بعض لافتات كتب عليها :

« متجر الفوائد الكثيرة لصاحبه شون سون لو »

وفى الجزء الداخلى من المتجر كان مخزن السلع . وفيه كميات وفيرة من الشاي والتوابل . ورأى ساقات بالمخزن بعض العمال الصينيين . وهم يعملون فى تعبئة البضائع فى علب وصناديق . وكان هؤلاء الصينيون ضعفاء مرضى يشتغلون طيلة النهار ، وأجسامهم عارية إلا من ثوب قصير يلفونه حول خصورهم ، ويتدلى إلى الركبة . أما عمل ساقات فقد كان كنس المتجر كل صباح ، وإعادة تنظيم البضائع التى يتفرج عليها المشترون . وكان من عمله أيضاً أن يجلب أطباق الأرز المطبوخ من المنزل فى الظهيرة والمساء ، فيجلس حوله العمال وهم يلتهمونه بعصيهم القصيرة . وبعد الطعام يدور عليهم بأكواب الشاي . فإذا بقيت فضلة من الطعام التهمها ساقات ، ثم مد فمه إلى فم إبريق الشاى . وأخذ يرشف ما بقى فيه .

وفى نهاية المتجر كان يقوم باب صغير . يؤدى إلى الغرف الداخلية التى تسكنها أسرة شون . وكانت الأسرة مكونة من الأم العجوز التى كانت تشبه ابنها شون كل الشبه ، وزوجته الأولى « آه كى » وهى التى تتولى إدارة المنزل ، ثم زوجته الثانية . وكانت امرأة ضعيفة صغيرة . ومن الغريب أنها كانت مستعبدة كساقات . وكان للصينى ثمانية من الأولاد أكبرهم فى الخامسة عشرة من العمر ، وأصغرهم بين ذراعى أمه .

وكان هناك غرفة فى بيت الصينى يحيط بها الغموض . فقد كانت

مغلقةً دائماً . وكانت الجدّة كثيراً ما تمر من أمامها وتُنصت السمع . ولم يكن يسمح لساقات أن يقربُها . واهتم ساقات بهذا الأمر ، فحاول مرةً أن يقترب من الغرفة . وتسلل فى الظلام حتى أصبح على بعد خطوتين من الباب . فسمع لدهشته صوتاً بداخلها كأنه صوتُ إنسان يبكى ويتنهد . وفى يوم ثان خيل إليه أن الصوت يصرخ قائلا : يا إلهى الرحيم ارحمنى . وبدا له كأنّ الصوت لفتاة صغيرة . وفى ذلك اليوم أخذ الصوت يصرُخ بصوت عال . فاستاءت الجدة التى كانت تجلس أمام الباب فى ركن مظلم لهذا الصوت . ولوّت شفتيها فى غيظ ، ثم نادت الزوجة الثانية ، وصرخت فيها قائلة : أهكذا أيتها المرأة المهملة تطيعين أوامر زوجك وسيدك ؟

وهلعت الزوجة فى اضطراب وقالت : كنت أظنّ يا سيدتى أن الفتاة ستستغرق فى النوم من تأثير الأفيون الذى أعطيتها إياه ساعات طويلةً . ولكنى لا أدرى لمَ استمرت يقظى .

وسألتها الجدة : وأين الولد السيامى الصغير ؟ وأجابتها الزوجة الثانية قائلة : لا أراه فى المنزل ، ولا بدّ أنه قد خرج .

وكان ساقات فى ذلك الوقت مختفياً وراء باب نصْف مفتوح ، وسمع الجدة تقول : افتحى باب الغرفة وأسكتى هذه البنت .

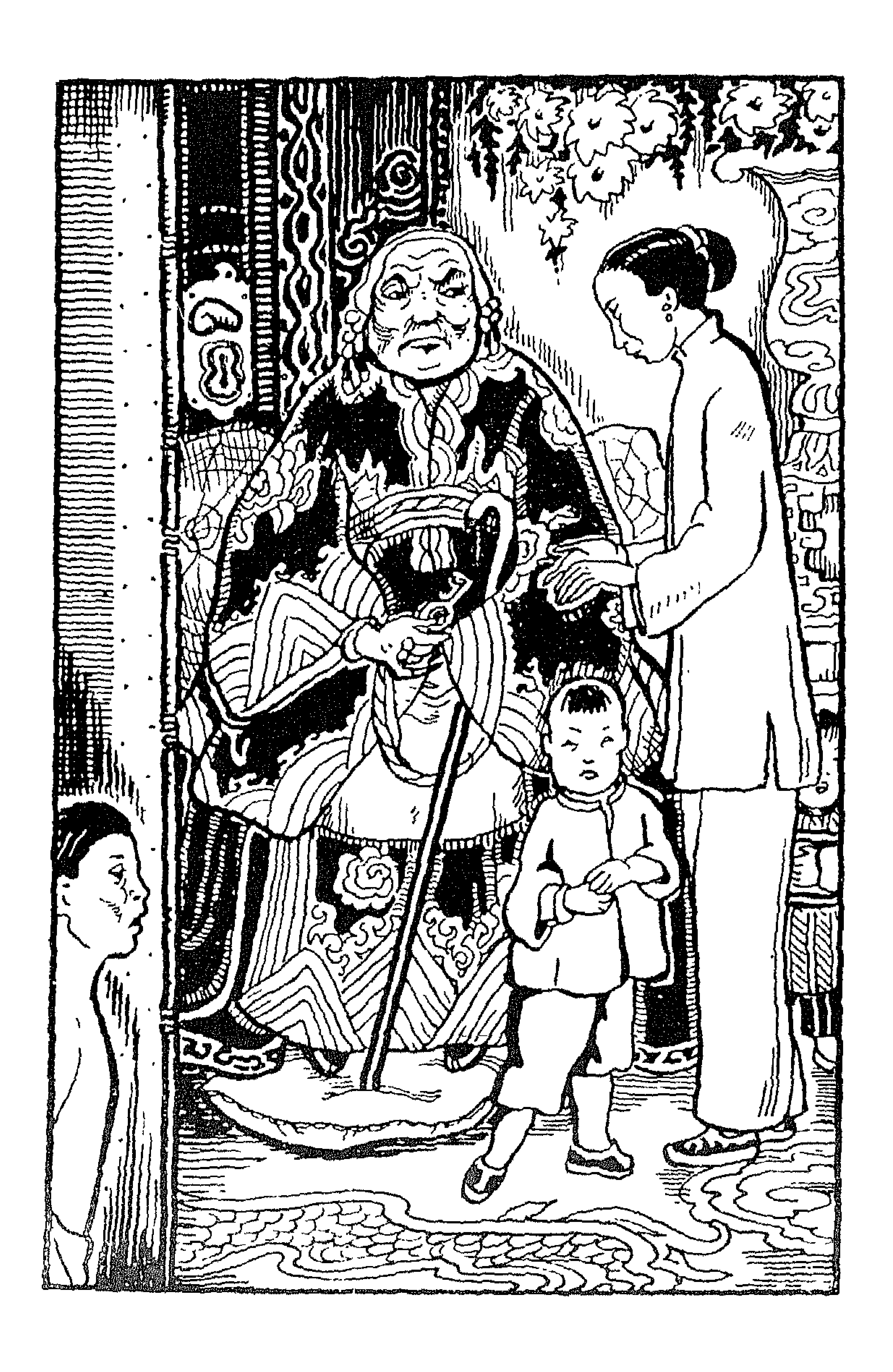
وبعد قليل سمع ساقات صوت المفتاح وهو يدور فى القفل ، ثم صوتَ الفتاة وهى تصرخ : يا إلهى الرحيم ! أنقذنى ؟ ثم انقطع صوت

الفتاة وساد الصمت وأغلق الباب .

ورقّ قلب ساقات للبنت السجينة ، وقال فى نفسه : مهما يكن ذنب هذه البنت فإن حالها أسوأ من حالى . وقرّر أن يكشف أمرها ، ويعرف سبب سجنها ، فربما أمكنه مساعدتها .

وحانت الفرصة المرتقبة عندما خرجت أسرة شون جميعها إلى السوق فى أحد أيام الأعياد . ويبدو أن هذا العيد كان من أعياد الصينيين المنتظرة التى يحتفل بها الجميع ، فقد كانت الأسرة تتحدّث عنه قبل حلوله بزمن طويل . وكان حتّى السامبرج يستعدّ له استعداداً كبيراً . ولقد تمنى ساقات أن يخرج ليشهد هذا العيد . وكان يعلم أنه يمكنه الخروج — ولو وقتاً قصيراً بعد خروج الأسرة — ولكن سرّ الفتاة السجينة اجتذبه ، فقرّر أن يبقى بالمنزل . وقد أيقن أن هذه هى فرصته الوحيدة لمعرفة سرّ الفتاة الأسيرة .

وعند الأصيل ، ارتدت الأسرة أبهى حللها . ولما قالت الجدة إنها لن تستطيع المشى أجابها شون قائلا : إن عليها أن تجلس فى السيارة وتطوف بها السيارة لتتفرج حتى يرجعوا إليها . وتطلع إليهم ساقات وهم يغادرون المنزل فى موكب كبير تتقدّمه المرأة العجوز بخطواتها المتداعية ، وقد توكأت على ذراع الزوجة الأولى ، وسارت الزوجة الثانية على يسارها . أما البنات فقد كن يحملن الأطفال الصغار على ظهورهن ، ومشى الصبيان خلفهن فى زَهْو وخيلاء .



وبعد برهة وجيزة تسلل ساقات إلى باب الحجرة المقفلة ، وأنصت . وكان الصوت ينبعث منها كأن إنساناً يتلمس طريقه بجانب الجدار . ثم سمع ساقات الصوت نفسه يتنهد ويقول : يا إلهى الرحيم ! أنقذنى ! ونظر الصبى من ثقب المفتاح . فرأى بنتاً صغيرة تجلس على الأرض . ورأسها يهتز على كتفيها .

واستجمع ساقات أطراف شجاعته ، وسألها هامساً من خلال ثقب المفتاح : ما حكايتك ؟ ولماذا تبكين وتصرخين؟ ووثب الشبح — حين سمع صوت ساقات — إلى الباب ، وقال فى صوت ملهوف : من أنت ؟

وقال لها ساقات : إنه صبى سيامى فى خدمة شون ، وإنه يسره أن يؤدى لها الخدمة التى تطلبها . وعندئذ قالت البنت فى صوت متهدج : إذا كنت سيامياً فإنى أستحلفك بالله أن تذهب إلى أبى ، وتخبره أنى سجينة فى هذا المكان . وسألها ساقات هامساً : وكيف أستطيع أن أعرف أباك ؟ من هو ؟

وقالت الفتاة : إنى الأميرة « وان راتانا » ، وأبى هو الأمير . . .

وفى تلك اللحظة الخطيرة أحس ساقات بيد ثقيلة تهوى على كتفه ، ونظر فرأى وجه شون البغيض . وتراجع ساقات بعيداً عن الباب ، وقد توقع أن يصفعه الصينى أو يركله . ولكن الصينى كان على النقيض فى معاملته ، فقد صفا وجهه ، وابتسم ابتسامة خفيفة ، وهو يقول :

لقد عرفت سرّنا المحزن أيها الغلام . إن هذه البنت هى كبرَى بناتى ، وهى مجنونة كما ترى . ويخيل لها جنونها فى بعض الأحيان أنها أميرة سيامية . إن هذا لأمرٌ محزن يا ولدى ! أليس كذلك ؟

ورأى ساقات الدموع تسيل من عينى الصينى . . .

واندفعت الفتاة حينئذ تدقّ على الباب وهى تصرخ : أطلقوا سراحى !! وبان التأثر على وجه الصينىّ . وتقدّم صوب الباب ، وهو يقول : سأدخل إليك حالا يا بنيتى الغالية. ثم التفت إلى ساقات قائلا : اذهب إلى عملك فى الحال ، ولا تدس أنفك فيما لا يعنيك .

ورجع ساقات فجلس فى المطبخ ، وهو حزين ساهم ، يفكر فى هذه البنت التعسة . وعلم أنه لا يستطيع أن يمدّ إليها يد المعاونة إن كانت مجنونةً حقًّا — كما قال شون — فأخذ يتسمّع أخبارها ، ويراقب أحوال أهل البيت تجاهها . فرأى أن الجدة العجوز كانت تجلس أمام الباب فى أكثر الأحيان كأنها تحرُسه ، وأن الخدم لا يسمح لهم بالدخول إلى هذه الحجرة ؛ فإن الطعام يذهب إليها بواسطة إحدى الزوجتين . وكان الخدم يتحدّثون عن البنت فى بعض الأحيان، ويقولون : إنها مجنونة خطرة ، حتى لقد حاولت أن تقتل العجوز ذات مرة بسكين حادة . وعندئذ أغلقوا عليها باب الحجرة ، ومنعوها من الخروج .

وكان الخدم كثيرين فى بيت شون . وكان مكان ساقات فى نومه معهم . ولم يستطع خادم أن يبقى فى بيت شون طويلا ، فقد كانوا

يتغيرون دائماً . وذلك لأن معاملة أهل المنزل للخدم كانت سيئة للغاية ، كما أن الجدة والزوجتين كنّ دقيقات الرقابة ، فلن يستطيع خادم مهما بلغت مهارته أن يسرق ولو حفنة شاى .

وكان الطباخ دائم الشكوى . وذات يوم قامت مشادّة حامية بينه وبين الزوجة الأولى فطردته . ولمّ الرجلُ حوائجه وخرج ، ولكنه ترك موسى حلاقة حادة . ووجد ساقات هذه الموسى . فوضعها فى حرص شديد تحت الحصير الذى ينام عليه .

وفى اليوم التالى وصل الطباخ الجديد « سام لى » . وكان رجلا مسنًّا ذا وجه متغضّن ، وعينين حزينتين كعينى كلب جريح ، ورأس أصلع كالبيضة .

وذات يوم فى الآسبوع الأول من وصول سام لى ، دخلت الزوجة الثانية إلى المطبخ وهى تحمل فى يدها صحناً به حساء . وجذبت سام الطباخ من كمه ، مشيرةً بيدها إلى شعرة طويلة على وجه الصحن . ثم اندفعت تصبّ عليه وابلا من الشتائم .

وانتظر سام لى حتى انتهت السيدة من شتائمها . ثم أشار بعد ذلك إلى رأسه الأصلع ، وقال فى رنّة سخرية واستهزاء : لا شك أن السيدة لم تنظر إلى رأسى أبداً .

وضحك ساقات . ونظرت الزوجة الثانية إلى رأس سام لى فى دهشة ، كأنما تراه لأول مرة ، ثم قالت : لا بدّ أن هذه الشعرة

قد سقطت من رأس الزوجة الأولى . وغادرت المطبخ بعد ذلك مسرعةً .

وقال سام لى . وهو يستدير إلى مائدة المطبخ : إن لسان المرأة المتسرعة كالنار ، ولكنّ كلمةً واحدة تطفئها .

وأحبّ ساقات الطباخ سام لى ؛ فقد كان منظره يذكره بسوك فى الغابة ، كما أن سام لى كان هادئاً طيباً يعامل ساقات برفق . وكان هذا الشيخ لا يكثر من الاختلاط بالخدم ، بل هو دائماً منصرف إلى عمله فى صمت ، وقد زمّ شفتيه كأن قلبه ينطوى على سر حزين .





بو مرة ثانية

كان المطبخ يقع فى أقصى الداخل فى منزل شون . وكان لهذا المطبخ باب يطلّ على نهير متوسط الاتساع . وهذا النهير هو الذى يفصل حى السامبرج عن باقى المدينة . وكان من عادة ساقات أن يجلس على شاطئ هذا النهير عندما تهدأ الحركة فى البيت . وينام السادة فى غرفهم ساعة الظهيرة ، وينظر نظرات حسرة وألم إلى الأشجار التى تمتد على الجانب الآخر من النهر الصغير . فقد كانت تلك الأشجار تذكره بالغابة التى أنفق فيها طفولته . والتى يسكن بها أعزّاؤه وأحبابه . والتى التقى فيها بصديقه العزيز بو . ترى أين أنت الآن يا بو ؟ وامتلأت

عيناه بالدمع لذكرى الفيل . ولما غلبه الدمع — الذى حاول أن يكفكفه — بكى بصوت مسموع .

وأدرك ساڤات أنه ليس من العسير عليه أن يهرُب من بيت شون ، فلا أحدٌ يراقبه أو يهتم به ؛ فهو فى المنزل كالكلب الضالّ لا يلتفت إليه إنسان . ويستطيع هو أن يعبر هذا النهر الصغير إلى الضفة الأخرى . ولكنه ساءل نفسه : إلى أين سيذهب إن هرب ، وهو لا يملك نقوداً ؟ .. والنقود هى أهم شىء فى حياة المدينة . وبدونها لا يستطيع أن يعيش يوماً واحداً . وتذكر أنه يرى من يملك نقوداً يعامل بكرم وعطف بالغين حين يدخل المتجر شارياً أو متفرجاً . أما المفلسون فإنهم يطرَدون وينهرون دون شفقة . وهبه وصل إلى المدينة فمن يطلب المساعدة وهو لا يعرف فيها أحداً ؟

ولكنه حزَم أمره أخيراً ، وصمم على الهرب برغم كل هذه العقبات .

وذات يوم صفعته الجدة العجوز على وجهه عدّة صفعات دون سبب . فابتعد عنها وهو يتألم ، وذهب إلى المطبخ ، ووقف على بابه المطل على النهر الصغير ، ولم يتبعه أحد ، وكان المطبخ خالياً ، فألقى بنفسه فى الماء . وأخذ يسبح قويًّا مندفعاً ، وساعده التيار . وكان يخشى أن يفتقدوه سريعاً ، فإذا لم يجدوه أرسلوا زورقاً فى طلبه . ولكن الحظ حالفه ، فلم يفطن أحد إلى هروبه . فاشتدّت حماسته حتى وصل إلى الشط الآخر . ثم تعلق بأحد الأحجار ، وخرج إلى الأرض . وسار

بين منزلين محاطين بالشجر الكثيف ، فوجد نفسه فجأة فى شارع واسع .

وانطلق فى هذا الشارع بسرواله المبلل ، وشعره الأشعث . ولم يُعِرْه أحدٌ التفاتاً . وكانت الشمس ساطعة فجففت ثيابه . ومشى لا يعرف له قصداً أو اتجاهاً . ورأى الناس يسيرون فى اتجاه واحد فسار وراءهم خلال شارع طويل واسع على جانبيه أشجارٌ طويلةٌ منحنية الفروع ، تظلل أرض الشارع . ونظر إلى الناس فإذا بهم من مختلف الجنسيات والأشكال . وكان السياميون يرتدون حللا نظيفةً كأن اليوم يوم عيد . وكان رتل من العربات يتدافع فى الطريق . ونظر الصبيّ إلى هذه العربات فإذا بها مليئةٌ بالأجانب ذوى الوجوه البيضاء أو الضباط السياميين فى حللهم الزاهية ، وقد ثبتوا فى قبعاتهم السوداء بعض الريش الأخضر الذى يرفرف فى الهواء .

ومدّ ساقات بصره إلى نهاية الشارع حيث يتجه الناس ، فرأى بعض مبان ضخمة مسقوفة بلون برتقالى أو أزرق ، وقد تناثرت على السقوف الأبراج العالية المذهبة . وأخذ المنظر بلبه فحثّ الخُطى حتى وصل إلى الميدان الذى كانت تنصبّ فيه قوافل المشاة ، فوجد عدداً كبيراً من السياميين وقد وقفوا صفوفاً متراصّة وراء حَبْل غليظ . وكان بعض الجنود يمنعون الناس اختراق هذا الحاجز . فوقف سافات بين الجموع وهو ينصت لما يقولون .

كانت سيدة تقول لصديقتها : إن هذا ليومٌ مجيد ! فقد وصل

الفيل الأبيض . وأجابتها صديقتها . نعم ! فإن هذا اليوم من أمجد أيام تاريخنا . فبالله أسرعى حتى نتخير لأنفسنا مكاناً نستطيع فيه أن نشهد الاحتفال عن قرب .

وساءل ساقات نفسه : ألا يكون هذا الفيل الأبيض هو بو ؟ فلحق بالسيدتين وقال لهما : اعذرانى أيتها السيدتان . لقد سمعتكما تتحدثان عن الفيل الأبيض ، فمتى سيظهر ، وأى طريق سيعبر ؟

وأجابته إحداهما : سيعبر هذا الطريق من أمام باب قصر الملك .

ولم يستطع ساقات الانتظار . فأسرع يجرى فى وسط الزحام ، ويتسلل بين الأقدام . وكان صوت الموسيقى عالياً مدوياً ؛ من نايات عذبة الشجو والإيقاع ، إلى طبول رائعة الوقع . فأخذ ساقات يتتبع مصدر الصوت حتى أصبح أمام الموكب ، واشرأب بعنقه ، فرأى صفوفاً من الكهنة السياميين ، وقد لبسوا رداء أصفر واسعاً . وعلق كلٌّ منهم فى عنقه ما يدل على رتبته ، وهم يتقدّمون الموكب . ويتلو الكهنةَ صفوفٌ من الضباط السياميين فى أردية زرقاء عليها شارة الملك ، وعلى رءوسهم قبعاتٌ مزينة بالريش . ثم أطلّ بو بجسمه الأبيض الجميل ، وقد أحاطت بعنقه قلائد الأزهار .

وأخذ ساقات يغمض عينيه ويفتحهما لكى يتأكد من أنه فى يقظة لا حلم ، وقال لنفسه : إذن كلّ هذه الموسيقى وهذا التكريم من أجل بو ؟ وهؤلاء الكهنة والضباط يتقدّمون موكبه . وفرح فرحاً شديداً ،

وأخذ ينظر إلى بو فى إعجاب .

ووصل الموكب إلى القصر ، وتوقف المشاة ، ووقف ضابط كبير وقد نشر بين يديه ورقة وأخذ يخطب :

أيتها الملائكة الخيرة ! إننا نضرع إليك أن تشملى برعايتك صاحب الجلالة ملك سيام العظيم . وأن تحوطى بعنايتك هذا الفيل الأبيض النبيل الذى كان قدومه بشير خير وسعادة لمملكتنا العظيمة .

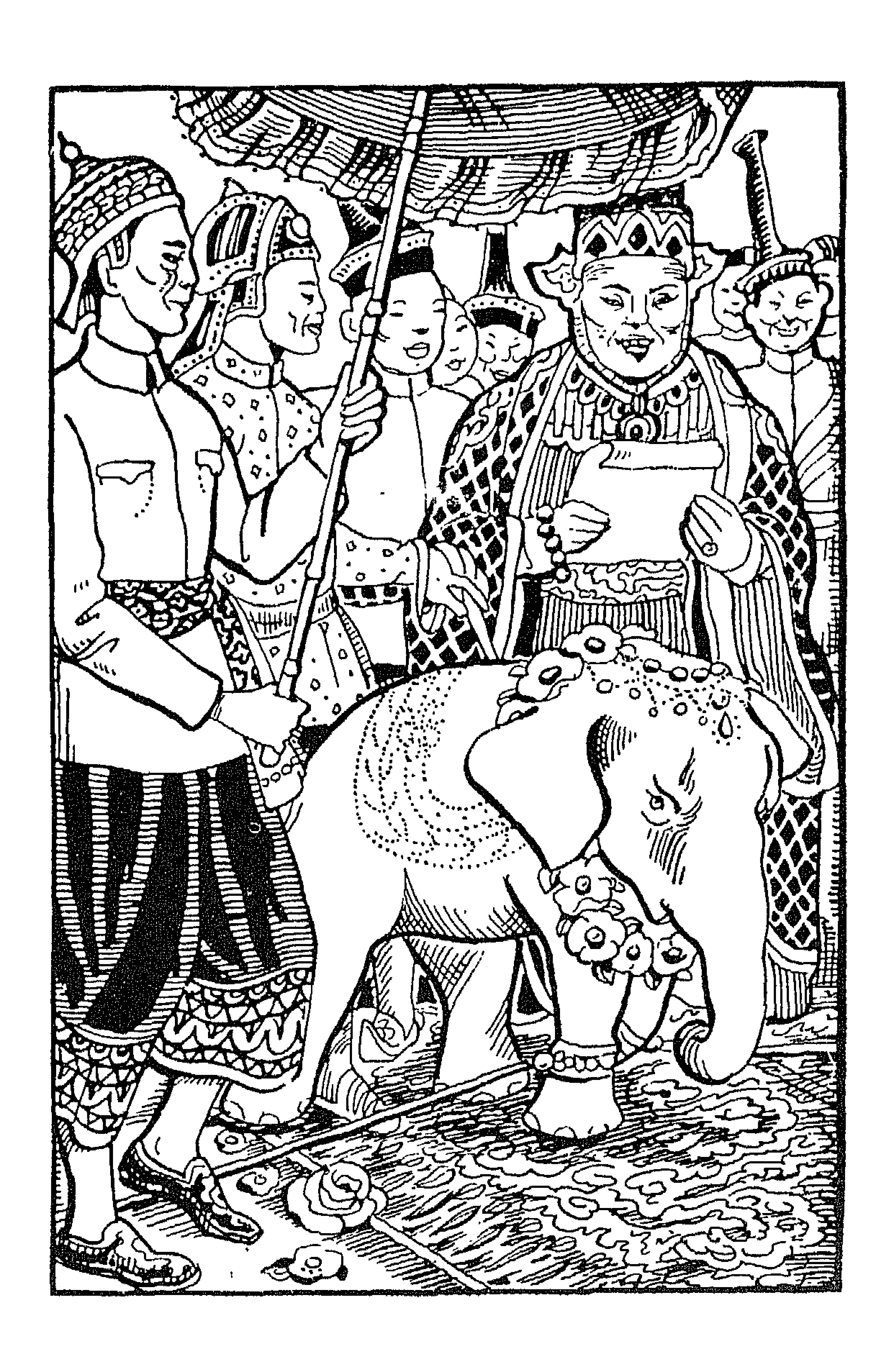
وقاطعت الجماهير الضابط مهلِّلةً : مرحى بالفيل الأبيض !! مرحى بالفيل الأبيض ! ورفع الضابط يده يطلب إليهم الهدوء . ثم استطرد يقول : كما أننا نرجو هذا الفيل الملكى النبيل أن يتقبل ما نقدمه له من آيات الشكر والثناء .

ويظهر أن بو لم يكن يريد أن يتقبّل هذه الآيات ؛ فقد مدّ خرطومه نحو الضابط . فتراجع الضابط إلى الخلف خائفاً .

وانفجرت الجماهير ضاحكة ، وقال بعضهم لبعض : لقد قدم حالا من الغابة ؛ فهو لم يتعوّد بعدُ تقاليدَ مركزه العظيم .

وكان الضابط قد رجع إلى مكانه الأول . ثم وجه الخطاب إلى الفيل قائلا :

أيها الفيل العظيم ؛ إنا لنرجوك أن تنسى أباك وأمك فى الغابة ، وأن تدع ذكرى أصدقائك هناك ، فأنت هنا مكرّم معظم ، يسعى الخدم بين يديك ، ويحققون لك كل ما تطلب .



وبينما كان الضابط يلقى خطابه بين يدى الفيل كان ساقات يتسلل من بين الصفوف . فقد قرّر أن يصل إلى بو ويحادثه . وفى اللحظة التى اقترب منه فيها ووقف وراء الحاجز متأهباً للنداء عليه كان الكهنة يرشون بو بالماء المقدس . وهم ينشدون أغنية جميلة الألفاظ . وكان الضابط يتم خطابه قائلا :

والآن ، وقد تمّ تعميدك فسنسميك اسماً جديداً . أنت من الآن « الدرة البيضاء ، جوهرة اللوتس . السليل العظيم لأنبل الملائكة » .

واستطرد الرجل يخطب . ولكن ساقات لم يلق إليه بالا ، فقد كان يصيح بأعلى صوته بو ! بو !

ولما سمع الفيل صوت ساقات رفع خرطومه فى الفضاء ، وهمّ أن يذهب ناحية الصوت . ولكن الحراس عاقوه عن الحركة بتلك القضبان النحاسية اللامعة التى قيّدوا بها قدميه .

وتوجه إليه الضابط بالحديث قائلا : أيها الفيل النبيل الشجاع ! نرجوك الهدوء حتى يتمّ الاحتفال .

ولكن الفيل لم يهدأ بل ازداد حدّة . ومدّ خرطومه إلى الأرض فتناول حفنة من التراب وأخذ يذُرّها فى وجوه مستقبليه . وهو يصيح كلما سمع صوت ساقات يناديه : بو ! بو !

واستطرد الضابط برغم الضجة ينهى خطابه قائلا : وإنه لمن يمن طالعنا — وبفضل معونة السيد شون سون لو — أنك اخترت مدينتنا

هذه مقرًّا لك .

ولما سمع ساقات هذا الكلام لم يستطع أن يضبط نفسه ، فاندفع من تحت الحبل الحاجز صائحاً : هذا كذب ! هذا كذب ! استمعوا إلى ما أقول ! إن هذا الفيل فيلى ، إننى أنا الذى وجدته .

واندفع الغلام من بين صفوف الضباط المحيطين بالفيل ، غير مُلْقٍ بالاً لصيحاتهم وتهديدهم ، ثم ألقى ذراعيه حول رقبة الفيل . فاهتزّ الفيل فى موضعه فرحاً ، وأخذ يداعب ساقات بخرطومه . ثم مده فأخذ حفنة من التراب ، وألقاها ثانية فى وجوه الضباط .

لم يحدث من قبل فى سيام أن جرى ذلك الارتباك فى حفل تنصيب فيل . ولذلك عمت الفوضى وصاح الناس . وتقدّم الشرطة كى يقبضوا على ساقات ولكن بو كان لهم بالمرصاد ، فقد لوّى خرطومه مهدداً ، فابتعد الجنود ، وتجمع الناس حولهما ، وقد اجتازوا الحبال الحاجزة ، وأخذوا يصيحون وهم يشيرون إلى ساقات : أخرجوا الصبىّ من هنا ، إنه مجنون وسيفسد الاحتفال بجنونه .

وفجأة . . . انبعث صوتٌ رهيبٌ عميق قائلا : ليلزم كل منكم الهدوء ، فإنى سأتحدث إليكم .

ونظر ساقات جهة الصوت فرأى فراباتوم واقفاً ويده مرفوعة أمامه . وكان يقول : إن الغلام صادق فيما يدّعيه ، فالفيل فيله ، وقد رأيته معه فى الغابة منذ ثلاثة أشهر .

وانبعثت صيحات الدّهشة من حناجر الرجال ، وصاح ساڤات : ألم أقل لكم إن الفيل فيلى ، وقد سرقه الرجل الصينى منى .

والتفت إليه فراباتوم وقال له فى حنان : إن ما تقوله هو الحق . ولكن الاحتفال يجب أن يتمّ مهما كان الأمر ، فدع الفيل يمضى إلى الحظائر الملكية .

ومدّ فراباتوم يده ، ووضعها على كتف الغلام ، كأنه يأمره بالانصراف . فمشى الصبىّ بعد أن نظر إلى بو نظرةً طويلة .





مع صديقه الجديد

وابتعد الغلام عن الموكب حزيناً ، بعد أن ودّع بو بتلك النظرة التى حوت كل ما يكنه للفيل من الحب والصداقة . ولما صار على ناحية الشارع الجانبى تحيّر أين يذهب ؟ ووقف مفكراً . وعندئذ أحسّ بيد توضع على كتفه ، فرفع بصره ، وإذا برجل أوربى طويل القامة يقول له باللغة السيامية : إلى أين أنت ذاهب أيها الصبى ؟ وأجابه ساثات : لا أدرى سيدى ، فلا أهل لى هنا ولا معارف . وابتسم الأوربى وقال له : تعالَ معى فأكون لك راعياً وصديقاً وأخاً كبيراً .

نظر ساثات إلى الرجل الأوربى فى إمعان ، فإذا هو شابٌّ أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذو عينين زرقاوين ، ووجه باسم صبوح

ولأمر لا يعرفه ساڤات وجد نفسه مطمئنـًا إلى هذا الوجه الباسم ، ومال قلبه إليه ، فمد يده إلى اليد التى امتدّت لتصافحه ، وعلى فمه طيف ابتسامة صافية . ولفّ الأوربى يده حول كتف الغلام ، ثم انطلقا فى الطريق .

وبينما هما يسيران حدّثه الأوربى عن نفسه ، فقال له : إن اسمه «چيمى واطسون» ، وإنه يعمل صحفيـًّا فى جريدة سيامية اسمها « صحيفة بانجكوك » .

وسأله ساڤات : كيف أتقنت لغة السياميين يا سيدى ؟

وأجابه چيمى : لقد ولدت فى سيام ، ونشأت بين أهلها ، لذا فأنا أحبهم .

ثم استطرد قائلاً : وحين رأيتك وأنت تتعلق بالفيل خفت أن تفتك بك الجماهير . والآن — أيها الصديق — حدّثنى بالقصة كاملة ، حتى أنشرها فى صحيفتى . وأجابه ساڤات : لقد أنقذتنى — أيها الصديق الأجنبى — من التشرد والضياع فى هذه المدينة الكبيرة. ولذلك فإننى أعتقد أنك ملاك عظيم جئت لتنقذنى .

وضحك چيمى قائلا : هوّنْ عليك أيها الصغير . لست ملاكاً ولا شبيهاً بالملاك . فدعنا من هذا الكلام وقصّ علىّ قصّتك ، أو انتظر حتى نصلَ إلى مكتب الجريدة ، ونجلس على المقاعد المريحة ، ثم تحكى لى كل التفاصيل .

وهزّ سافات رأسه موافقاً . ثم قصدا إلى سيارة قديمة كانت تنتظر چيمى فركباها . ولم يطق الغلام صبراً ، فأخذ يحكى قصته ؛ وكان چيمى يتتبعها بانتباه شديد . وفجأة استوقفه قائلاً : اصبر قليلا ، ولو أننى أقسم لك إننى أشد شوقاً إلى سماع القصة منك إلى حكايتها . ولك علىّ عهدٌ عندما نصل إلى مكتب الجريدة أن نسمع هذه القصة الرائعة ، أنا ورئيس التحرير .

وانحدرت السيارة فى شارع جانبى . ثم وقفت أمام مبنى قديم علقت عليه لافتة مضاءة كتب عليها « صحيفة بانجكوك » .

وترجّل الأوربى وتبعه سافات . وصعد چيمى السلالم وثباً ، وسافات يتبعه . ثم اندفع إلى غرفة رئيس التحرير السيد « ميلارد مالكولم » . وكان رئيس التحرير يجلس على مكتبه منهمكاً فى الكتابة . ولما أحسّ بدخول چيمى سأل دون أن يرفع عينيه عن الورق : ماذا وراءك يا چيمى ؟

وأجابه چيمى : انظر ! لقد اصطحبت معى هذا . . . وجذب سافات ، وأوقفه أمام مكتب الرئيس . ثم أخذ يوضّح له كيف رأى سافات فى الاحتفال ، ولماذا قدم به معه .

وقال رئيس التحرير فى هدوء : اجلسا . وسأسمع القصة حين أنتهى من عملى .

وترجم چيمى لسافات ما قاله الرئيس ، وأشار إليه أن يجلس ،

فأطاع ساقات الإشارة ، وجلس إلى الأرض يسمع حديث الرجلين ، وكان لا يفهم من هذا الحديث حرفاً لأنه كان بالإنجليزية .

وكان رئيس التحرير يقول : إن هذا الأمر لمفزع يا چيمى . فاختفاء الأميرة كارثة ، وليس هناك خيطٌ واحد يقود إلى معرفة سر الاختفاء .

وأطرق چيمى ، ومرّ بيده على شعره ، ثم قال : لقد سمعت اليوم شائعة تقول إن أحد الأشرار قد اختطف الأميرة . . . ولكن من يدرى الحقيقة ؟

وقال له الرئيس : أتعرف يا چيمى أن أروع نصر صحفى لنا هو أن نوفق فى إماطة اللثام عن سرّ هذه الجريمة ؛ ففضلا عن الشهرة التى ستتمتع بها جريدتنا ستتحسن العلاقات بيننا وبين الحكام . ويكونون لنا عوناً فيما بعد .

قال الرئيس هذا الكلام ، وهو يحدّق ببصره فى الفضاء ، ويدقّ بقلمه على المنضدة التى أمامه .

وقال چيمى حين أحس أن الصبىّ يتململ فى مجلسه : سيدى الرئيس . إننا نستطيع أن نؤجل هذه المشكلة ، ونستمع إلى قصة الصبىّ .

وأجابه مالكولم : اصبر قليلا يا چيمى ، فإن اختفاء الأميرة يشغلنى ؛ وإنى أتمنى لو استطعت أن أهب سنتين من عمرى لكى أجد للأميرة أثراً . وعلى كل حال دَع الصبى يقصّ قصته .

هل تتصور أن السيد شون سون لو الثريّ العظيم يخرج بقافلة مكونة من أربعة أفيال لأجل حمولة من علب الثقاب ؟! لقد كان يخفى الأفيون أو المورفين فى هذه العلب . ثم قال لساقات : أليس كذلك أيها الصبيّ ؟

وأجاب ساقات : لست واثقاً يا سيدى . ولكنى أذكر أننى قد نطقت مرة بكلمة « علب الثقاب » أمامه ، فغضب . وهدّدنى أن يمزّق جسمى إرْباً إرْباً ، إذا نطقت الكلمة مرةً ثانية .

وقال چيمى : هذا طبيعى ، فإنه لا يريد أن يشتبه أحدٌ فى حمولة القافلة . وبخاصة لأن القانون فى سيام يمنع تهريب الأفيون . ويهدّد من يهرّبه بالسجن أو النفى . وقال مالكولم أخيراً : ربما كنت محقاً فيما تقول يا جيمى . ولكن هذا ليس من شأننا ، بل هو شأن الحكومة السيامية .

وظل الرجلان صامتين لحظة . ونظر ساقات من خلال النافذة . فرأى عربات الريكشا التى يجرها الرجال . والسيارات تدرج فى الطريق . وأخذ يتلهى بعدّ العربات . إلى أن قال چيمى : ما زالت القصّة مشوّقة . فحدثنا يا ساقات عن بيت شون سون لو وعن أولاده . وزوجاته وكيف يعاملهن . وكيف كان يعاملك . حدّثنا عن كل شيء بالتفصيل حتى أستطيعَ أن أكتب مقالةً مشوّقة عن حادثتك .

واستأنف ساقات حكايته ، حتى انتهى إلى يوم الحرب . ولكنه فجأة

تذكر شيئاً كاد يغيب عن ذهنه ، فقال : لقد فاتني أن أحكي لكما قصة تلك الفتاة السجينة في بيت شون ، وهي فتاة مجنونة تعتقد أنها أميرة اسمها « وان » .

وعندئذ تخلى مالكولم عن هدوئه المأثور ، فهبّ واقفاً . وقد سقط غليونه من فكه ، وصاح : « يا إلهي ! » ؛ أما چيمي فقد انتفض من مقعده وهو يصرخ في ساقات : رباه ! ساقات ! أيها الصبيّ الغريب ! هل ذكرت الآن شيئاً عن فتاة سجينة في بيت الصيني اسمها وان !!

وهزّ ساقات رأسه مؤكداً .

وقال مالكولم : لنخبر الشرطة حالا .

وتحرّك من مكانه كأنه يريد أن يغادر الحجرة ، ويذهب توًّا إلى مركز الشرطة .

ولكن چيمي استوقفه قائلا : لحظة يا سيدى . إن إنقاذ الأميرة هو فرصتنا ، والتفت چيمي إلى ساقات ، وقال له بالسيامية : والآن يا صديقي الصغير ، أكمل القصة من حيث انتهت في السيارة . لقد كنت تقول إن الصيني قد نزل بقريتكم ، وأخذك أنت والفيل معه . . . ثم ماذا ؟

وانطلق الصبي يحكي . وكان چيمي يستوقفه أحياناً ليسأله سؤالا ، أو يطلب إيضاحاً . وكان ساقات يجيب عن الأسئلة بدقة . حتى سأله چيمي : وما هي البضائع التي كانت تحملها قافلة الصينيّ ؟

وأجاب الصبيّ : لا أعرف يا سيدى ، ثم فكر فى الأمر برهة ، وتذكرّ بعض ما رآه فى أحد الأيام ، ثم قال : أظنّ أن القافلة كانت تحمل علب ثقاب الكبريت .

وصاح چيمى فى دهشة : علب ثقاب الكبريت !

وقال مالكولم : ليس هناك ما يدعو للدهشة ، فهناك دائماً قوافل تعبرُ من سيام إلى بورما تحمل علب الثقاب الواردة من اليابان .

وأجابه چيمى : إن ما تقول صحيح يا سيدى ، ولكنى أعجب لماذا يتّجر رجل غنى مثل شون سون لو فى هذه البضائع التى لا تدرّ كسباً كبيراً ، ولماذا يجهد نفسه فى السفر وراء هذا الربح القليل .

وعقب عليه الرئيس قائلا : إن سلوك الصينيين على العموم غير مفهوم . فدَعنا من هذا الأمر ، وليكمل الصبيّ قصّته .

واستطرد ساقات يحكى كيف سقاه الصينى وزميله شراباً منوّماً ، ثم أفاق فوجد نفسه ملقى فى إحدى عربات القطار .

وعندئذ صفّر چيمى بفمه ، وقام واقفاً متجهاً إلى مالكولم ، وقال له : هل رأيت يا سيدى ! لقد سقاه الصينيّ وصديقه شراباً مخدّراً . لقد كان الرجل يهرّب الأفيون فى علب الثقاب .

ونظر إليه مالكوم فى هدوء ، وقال : هدّئ من روعك يا صديقى ، فإنك كثير الاستنتاج دون أساس واضح سليم .

وسأله چيمى محتجاً : كيف يكون هذا ؟ إننى لواثق من هذا

الاستنتاج . فلا ينبغي أن نترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من أيدينا .
وأنت تعلم يا سيدى أن الشرطة السيامية — فضلا عن ضعف وسائلها —
لا يمكنها أن تهاجم بيت الصينى . دون أن تكون لديها أدلة واضحة .
وربما هرّب شون الفتاة إلى مكان لا نعلمه، والشرطة تطرق بابه،
ولهذا فإنى أقترح أن تترك لى هذه المهمة .

وقاطعه مالكولم قائلا : چيمى ! إنك لمغامر جرىء ألا تعلم أن
حياتك لا تساوى شيئاً فى نظر سكان حى السامبرج الصينيين إذا
اكتشفوا أمرك .

وأجابه چيمى فى حماسة : حقًّا إنها لمغامرة . ولكنى سأحكم التدبير .
وقد فكرت الآن فى أن أختار خمسة من الفتيان الشجعان وهم لارى .
وبيت . وبونزو . وسامى . وأوستن كريج . وجميع هؤلاء الشبان
يعرفون الأميرة . فقد سبق لهم أن شاهدوها فى حفلة الرقص التى تقام
فى قصر أبيها كل عام . وجميعهم أيضاً يحبون الأميرة الصغيرة لرقتها
وكرم خلقها . ويتمنون أن يساهموا فى إنقاذها . وسندخل البيت عن
طريق النهر الصغير الذى يقع خلفه .

وقال ساڤات وقد أعجبه حديث چيمى : أجل ! فإن ظهر المنزل
يطل على النهر الصغير . وهناك درجتان منخفضتان تصلان باب المطبخ بالنهر .

وفكر چيمى لحظة ثم قال : سنعبرُ النهر فى قارب صغير .
وتكون مهمة ساڤات أن يعطينا إشارة نتفق عليها تفيد أن أسرة شون

قد أوت إلى مخادعها ، فنتسلل إلى المنزل ، وننقذ الأميرة . . . ألا ترى يا سيدى أن الخطة بسيطة ومؤكدة النجاح .

وأجابه مالكولم ساخراً : أجل ! إنها لخطة بسيطة جداً ، فإن خطأً واحداً كفيل بأن يجعلك تقع فى يد شون كفأر حبيس فى مصيدة . استمع إلىّ يا جيمى . ليس لهذه المخاطرة ما يبررها . وسأخبر أنا أباها الأمير بدلا من أن أخبر الشرطة ، وهو يتصرف فى الأمر كما يشاء .

قال مالكولم هذا الكلام وهو يمدّ يده إلى سماعة التليفون . ولكن جيمى استمهله قائلا : أرجوك يا سيدى . انتظر حتى أتم حديثى . إننى أريد أن أقوم بهذه المغامرة لسببين : أولهما أن السجينة ربما كانت بنتاً أخرى . فنحن إذن نزعج الأمير دون مبرّر إذا أشركناه فى هذا الأمر . والثانى — ولعلك تعلمه . أننى أريد أن أكسب بعض المال ليمكننى فى صيف هذا العام أن أتزوج خطيبتى . ولذلك يتجه نظرى إلى الجائزة الكبيرة التى أعلن عنها ، والتى ستكون من حظ من يرشد إلى مكان الأميرة .

وأخيراً قال مالكولم : أيها الفتى المغامر ، إن كلامك لمقنع . وعليك بالعمل السريع . وإنى الآن لأتمنى لو كنت أصغرَ سناًّ مما أنا عليه لأصحبكم فى هذه المغامرة الرائعة . ولكن قلبى معكم دائماً ، أيها الفتية الشجعان ! فاذهبوا وانتصروا وعودوا سالمين ، والله معكم .

ثم خلع الرجل الكبير نظارته ، ومسح دمعة ترقرقت فى عينيه .

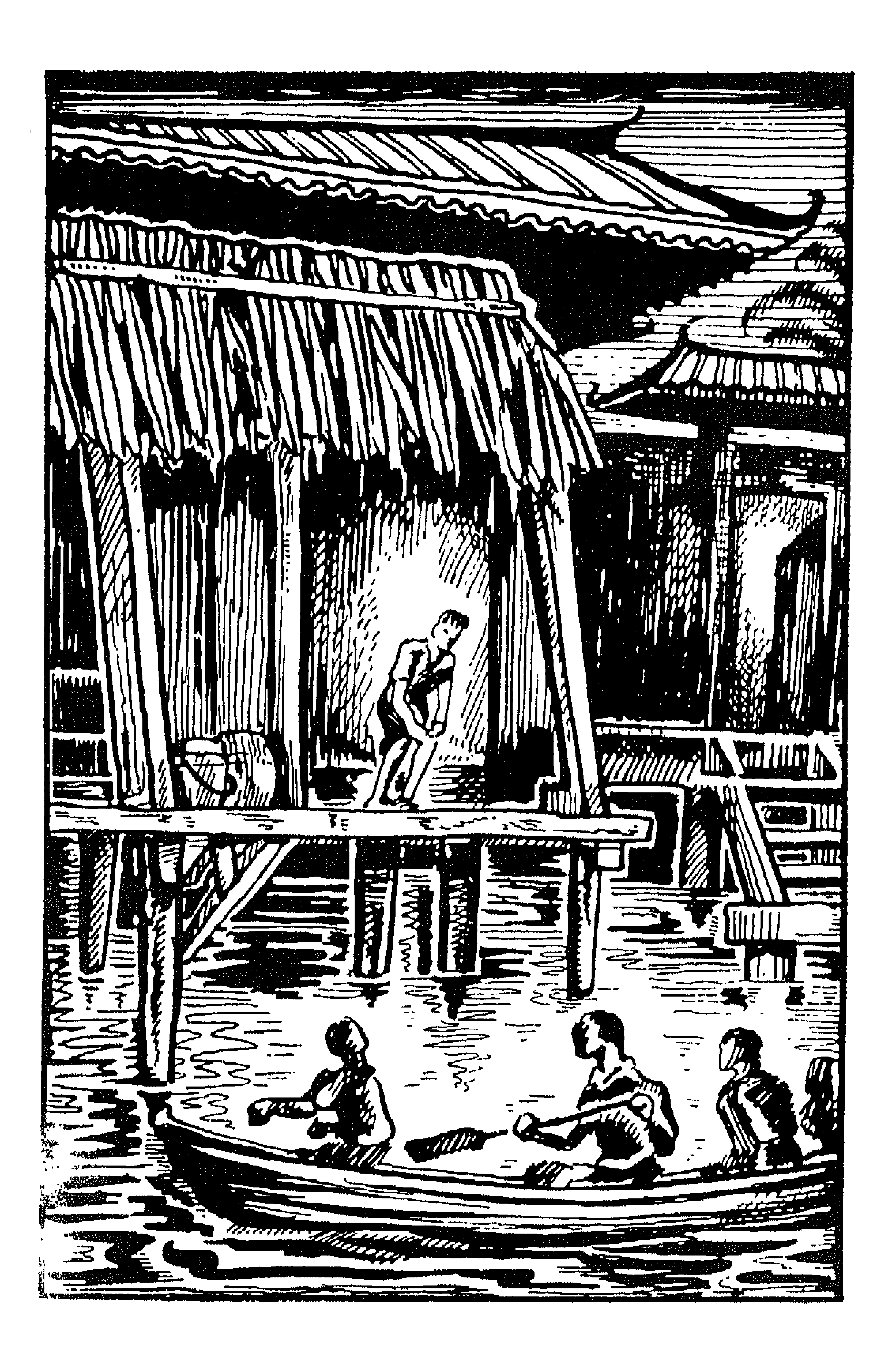
والتفت چيمى إلى ساڤات ، وأخذ يشرح له الخطة ، فقال : عليك الآن أن تعود إلى منزل شون ، وتعتذر له بأنك هربت لتلعب فى الطريق ، فلما أدركك التعب ولم تجد مأوى رجعت نادماً . وإذا ضربك ضرباً شديداً ، فاحتمل لأجل خاطر الأميرة . وفى الوقت نفسه سأجمع أنا الفتيان ، وسأبعث إليك أحدهم بكلمة السر التى سنتفق عليها ، وسننتظر إشارتك حوالى الساعة الواحدة غداً بعد منتصف الليل .

وسأله ساڤات : متى ؟ وأين يأتينى الرسول الذى يقول لى كلمة السر ؟

وأجاب چيمى قائلا : سيأتى إليك فى المتجر ، فلا تبرحه طول نهار الغد . . . وعليك أنت أن تختار كلمة السر حتى لا تنساها أو تخطئ فى معرفة الرسول فينكشف أمرنا .

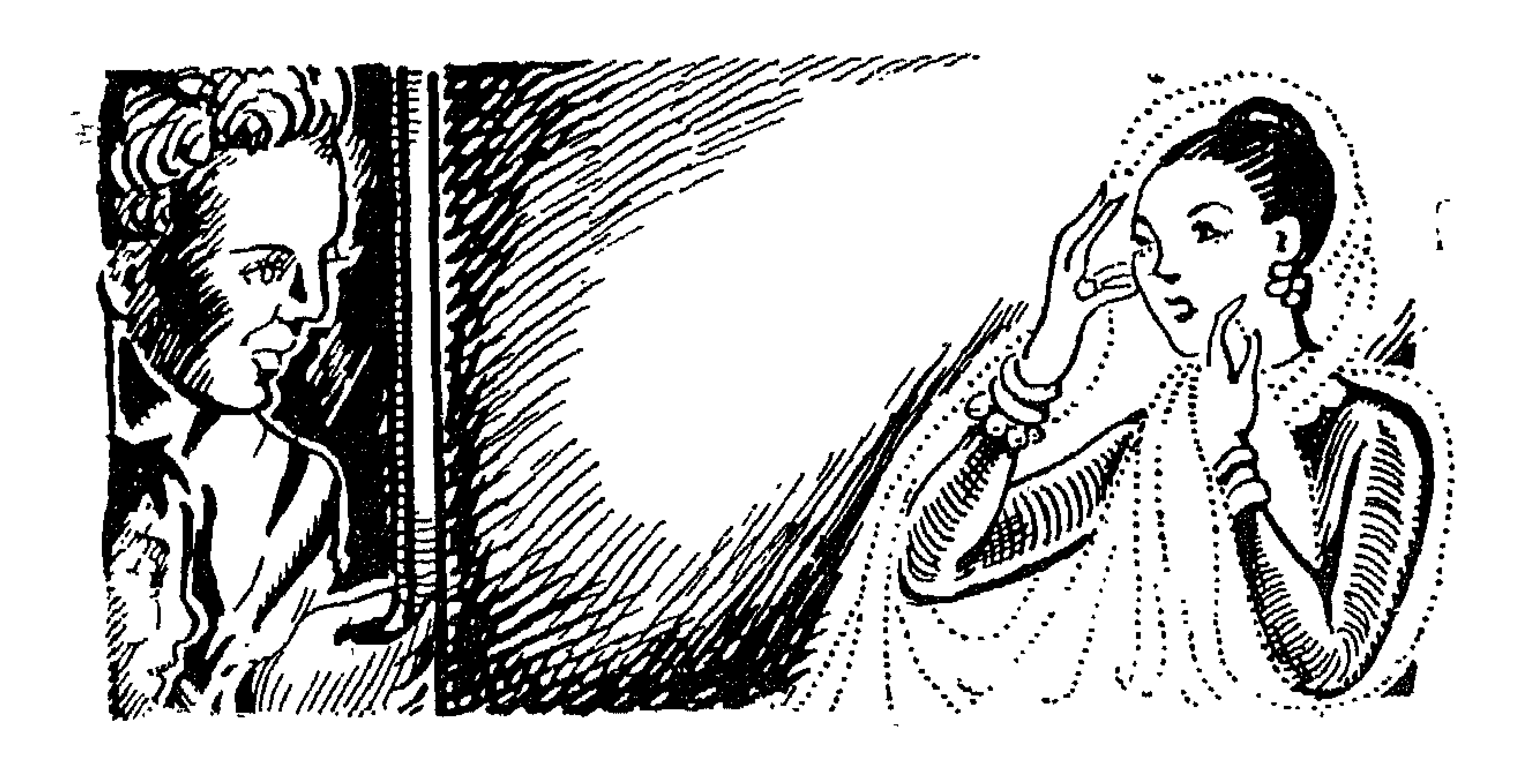
وعندئذ اقترح ساڤات أن تكون كلمة السر هى « الفيل الأبيض » . وكان طيف بو فى تلك اللحظة يداعب خياله .

وضحك چيمى قائلا : الفيل الأبيض ! يا صديقى ساڤات ! لقد كانت سرقة الفيل الأبيض فاتحة الخير لك ، فسنقتسم جائزة إنقاذ الأميرة ، لك النصف ولى وللأصدقاء النصف الآخر . وتستطيع بنصيبك أن تشترى سيارة وتعيش فى رغد ورفاهية ، وأن تذهب كل يوم إلى الحظائر الملكية لترى فيلك الأبيض .



وخطا مستر مالكولم نحوهما ، ووضع يده فى حنان على كتف الغلام . وقال لجيمى : اسأله عما سيصنع بالثروة التى سينالها . فلما ترجم چيمى السؤال لساقات ، قال ساقات فى براءة الأطفال : سأشترى حصاناً أبيض . . . وطعاماً .

وضحك چيمى ، وصاح قائلا : يا لله ! لقد نسينا الطعام . . فلا تغضب منى أيها الصبى العزيز . تعال معى الآن ، فسنأكل أفخر طعام ، ثم أقلك فى السيارة إلى قرب السامبرج . فتنزل أنت بعد أن تعدّ نفسك لتتلقى بعض الصفعات من كف شون الغليظة . ولا تنس كلمة السر « الفيل الأبيض » . وكن مستعداً لإعطائنا الإشارة فى الساعة الواحدة غداً بعد منتصف الليل .



سر « سام »

فى عصر اليوم التالى . كان ساقات يستلقى ممدداً على بعض الجوالات فى مخزن شون وقد توسد ذراعه ، وكان جسمه يؤلمه من أثر الضرب المبرّح الذى انهال به عليه « لوان كاى » ملاحظ المحل . ولقد كان من حسن حظه أن مرضت الجدة فى المساء الماضى فلم تلحظ غيبته .

وأغمض ساقات عينيه ليسترجع ذكرى بو ، وقد وقف مختالا بالورود والرياحين التى كسىَ بها عنقه . ثم تذكر منظره وهو يذرّ التراب فى وجوه الناس ، فابتسم وتمنى أن يراه مرة ثانية . وفى تلك اللحظة حطت ذبابة على جبهته ، فلما طردها عادت فحطت على أرنبة أنفه ،

ففتح عينيه مغتاظاً . وإذا بامرأة سيامية عجوز تقف أمامه ، وقد حملت فى يدها الممدودة إناءً من النحاس .

وقالت المرأة فى صوت واهن ضعيف : اعطنى قليلا من الأرز ، صدقة لوجه الله . فقد تركت فى المنزل صبية جائعين : وأشار سابقات إليها لتنصرف قائلا : انصرفى يا أماه ، فلست إلا خادماً ، ولا أملك ما أعطيك إياه .

ولكن المرأة أخذت تقترب منه حتى لامست يدها جبهته ، ثم قالت فى صوت خفيض : « الفيل الأبيض » ، فنظر إليها مبهور الأنفاس ؛ واستطردت المرأة قائلة : إننى خادمة الأميرة « وان » ومربيتها ، وقد أرسلنى السيد چيمى واطسون إليك بهذه الورقة لتوصلها إلى الأميرة ، وهو يريد منك أن تكون مستعداً فى منتصف الليل هذا المساء . وتلفتت حولها فى حذر ، ثم أعطت الصبيّ الورقة ، واستطردت قائلة : لا تنسَ أن تحصل على مفتاح الحجرة . وهذا أمر صعب ، ولكن السيد واطسون يثق فيك كل الثقة ، ويقول إنك صبيّ ذكيّ شجاع ، ويعلم أنك تستطيع الحصول على المفتاح ، وعند ما ينام أهل المنزل افتح إحدى النافذتين المطلتين على النهر !! واختنق صوت المرأة بالبكاء ، وقالت وهى تبتعد رويداً رويداً : سأنتظر سمو الأميرة فى القارب الليلة . فلتحرسكم الملائكة . ثم استدارت فى صمت ، وصوتها يتعالى بألفاظ الشحاذين المألوفة ، ويدها ممتدة بإنائها النحاسى .

وظل ساقات ساكناً يفكر بضع لحظات ، ثم هبّ واقفاً . وأخذ يتجوّل فى المنزل . وكان المنزل هادئاً كله ؛ فقد كان جميع أهله نياماً . وكانت الجدة العجوز جالسةً على كرسيها أمام باب حجرة الأميرة . وكان الشخير يتصاعد من فمها وأنفها عالياً مدوّياً . فوقف ساقات أمام الباب لحظة متردداً . ثم انحنى ودفع الورقة من تحته . وسمع خشخشة خافتة كأنّ الأميرة تأخذ الورقة وتقرؤها .

ابتعد ساقات عن الباب كأن لم يحدث شيء وفى اللحظة التى كان يغادر فيها الردهة متجهاً إلى المطبخ كانت العجوز تستيقظ من غفوتها ، وتتحرك فى مجلسها . وعلم ساقات أنه لو تأخر فى دفع الورقة إلى الأميرة ثانية واحدة لاكتشفت العجوز أمره .

وكانت الخطوة التالية هى أشق الخطوات ، كيف يمكنه الحصول على المفتاح قبل المساء ، والمفتاح معلق بحبل فى وسط الجدة العجوز .

وكاد ساقات ييأس . ولكنه تذكر ثقة چيمى به ، فقرّر أن يحاول الحصول على المفتاح مهما كلفه الأمر . وظل يراقب الجدة متحيناً الفرصة . وفجأة أشرقت فى ذهنه فكرة رائعة . لماذا لا يستعمل الموسى التى وجدها بعد رحيل الطباخ ، والتى احتفظ بها تحت حصيرته طوال تلك المدة ؟!

وفى الساعة الخامسة قدم ساقات الطعام للعمال . ثم حمل إليهم الشاى ؛ فلما أتموا طعامهم حمل بقاياه ، وذهب بها إلى المطبخ .

وكانت الجدة العجوز واقفةً أمام أحد المواقد . وقد تدلى المفتاح من وسطها . فى حين كانت الزوجة الأولى واقفةً بجانبها فى أدب متكلف . وتسلل ساقات إلى أحد الأركان ، وأخذ ينصت لحديثهما .

كانت الجدة تقول للزوجة الأولى : لقد كثر عملنا المنزلى ، وزاد عن مقدورنا ، وإنى لأقترح أن يتزوّج شون زوجةً ثالثة تساعدنا فى أعمال المنزل .

وأجابتها الزوجة الأولى قائلةً : لو أن هذه المرأة الكسول ، التى تزوجها حديثاً ، تشاركنا فى أداء أعمال المنزل . لما كان هناك سبب للشكوى أيتها الأم الجليلة .

وفى تلك اللحظة دخلت الزوجة الثانية مندفعةً إلى المطبخ — ويظهر أنها كانت تنصت لحديثهما من قبل — وكان وجهها غاضباً ، وهى تقول للزوجة الأولى : كفى عن التعريض بى فى غيابى أيتها المرأة الدميمة .

وقالت الزوجة الأولى ، وقد ارتفع صوتها حتى ليكاد سكان حىّ السامبرج جميعاً أن يسمعوه : اسكتى يا حقيرة فإن أباك كان يجر عربة الريكشا ، وأمك كانت متسولة ، أما أنا فإنى ابنة أشراف .

ولما سمعت الزوجة الثانية هذا الكلام اندفعت بكل قوتها نحو الزوجة الأولى ، فوقفت تلك متأهبةً ، ثم تماسكتا بالأيدى . وكانت الجدة تحاول عبثاً أن تفرق بينهما . وانتهز سافات الفرصة ، وأخذ يتسلل حتى صار بين أقدام المتشاجرات . ثم مدّ يده بالموسى وقطع الحبل

المتدلى من وسط الجدة العجوز ، والتقط المفتاح ، ثم أسرع يختفى فى ركنه فى اللحظة التى دخل فيها شون صائحاً : ما هذه الضجة ؟ اسكتن جميعاً ، وإلا أسكتكن بقبضة يدى ؛ وتفرّق الجميع ، ووقفت الزوجتان متأدبتين وأجابته أمه فى هدوء : لقد كنا نتناقش يا ولدى . وإنى لأقترح أن تتزوّج زوجةً ثالثة لتساعدنا فى أعمال المنزل .

وأجاب شون : وهل أنا قادر على أن أحتمل حيتين سامتين حتى أستحضر ثالثة ؟!

وخرج شون بعد ذلك إلى المتجر . أما ساقات فقد تسلل على يديه ورجليه إلى حجرة الخدم المجاورة للمطبخ . فجلس بها بعض الوقت ، ثم اتجه إلى المتجر ليساعد العمال فى إدخال البضائع وإعادة ترتيب السلع .

وكان المساء يخيم على حى السامبرج ، وكانت بعض شوارع الحى مضاءةً بالكهربا . ولكن هذا الطريق الجانبى الذى يقع فيه متجر شون كان مضاءً بالمصابيح الصينية الملونة ذات الضوء الشاحب . ورأى ساقات من خلال هذا الضوء جموعاً من الصينيين تعبر الشارع أو تجلس أمام المتاجر ، فأدركه الخوف ، وفكر ماذا يكون مصيره هو وأصدقائه لو لم تنجح الخطة ، ووقعوا أسرى فى أيدى هؤلاء الناس . ولم يبعث الاطمئنان فى نفسه إلا ثقته فى حسن تدبير صديقه العظيم چيمى واطسون . وقال لنفسه : سأعمل كل ما فى وسعى ، وأقوم بالواجب

الذى ألقى على عاتقى ، ثم أترك النتيجة للأقدار ! . . .

وقبل أن يذهب إلى حجرة الخدم مرّ بالمطبخ ، وفتح إحدى النافذتين المطلتين على النهر إشارة لجيمى وأصدقائه بأن الأسرة قد نامت . ثم رجع إلى مكانه ، واستلقى متصنعاً النوم . وكانت الحجرة مليئة بالخدم وقد جلس وسطهم سام لى الطباخ العجوز ، وهو يحكى قصة غريبة أنصت لها الجميع وهم يدخنون غلايينهم الطويلة التى لم تكن تحوى إلا هبوَةً صغيرة من التبغ .

وكان سام لى يقول : لقد رأيت هذا الرجل شون سون لو لأول مرة فى بلدة « يونان فو » . وكنت أنا عندئذ رئيس الطباخين فى قصر حاكم المقاطعة . وكان لهذا الحاكم زوجتان وسبعةُ أبناء ؛ أربعة من الذكور وثلاث من الإناث . وكانت « فرا جرانت بلوسم » أكبر بناته وأجملهن ، وكنا نحبها جميعاً . أما أنا فقد كان بينى وبينها مودّةٌ خاصة ، فقد كانت تعطف علىّ وتعتبرنى مثل أبيها ، فهى تعاملنى باحترام ، وتجيبنى إلى كل ما أطلبه . وكنت سعيداً بحسن معاملة الحاكم ، وبقربى من صديقتى العزيزة فرا جرانت بلوسم . ولم أكن أنا وحدى الذى يتمتع بالسعادة فى هذا القصر ، بل كانت السعادة ترفرف على أهله جميعاً .

وفى يوم من الأيام زارنا الشؤم فى هيئة شون سون لو . فقد كان يمتّ إلى الحاكم بصلة قرابة . وكان شون سون لو فى ذلك الوقت واسع

الثروة . كما هو الآن . ولكن الشائعات كانت تؤكد أنه قد جنى ثروته من على موائد الميسر . وكان لشون فى ذلك الوقت نعومةُ الثعبان وغدرُه . أما فرا جرانت بلوسم فقد كانت طيبةً تقيةً كالزنبقة البيضاء . وأخذ شون يغريها حتى هربت معه . . . يا للخسة والنذالة ! رجل ينزل ضيفاً على قريبه فيغوى إحدى بناته .

وبصق سام لى بصقةَ احتقار فى اتجاه حجرة شون ، ثم استطرد قائلا :

ومرّت ثلاثُ سنوات تجرّعنا فيها مرارة الأحزان . وكنت أبحث عنها فى كل مكان ، طوال هذه السنوات إلى أن رأيتها فى . . .

وخفت صوت سام لى ، وتلاصق الرجال ليستمعوا إلى ما يقول :

وانتهز ساقات الفرصة ، فتسلل إلى المطبخ ، ونظر من النافذة التى فتحها إلى صفحة النهر الصغير ، فلما رآها صافيةً هادئةً عاد إلى مكانه .

وكان سام لى يقول :

وقابلتها للمرة الثانية فى « هونان » ، ولكنها كانت مريضةً مجهدة . وماتت بين ذراعىّ . وفى ذلك اليوم أقسمت على جثتها أن أنتقم لها من هذا الوغد . وها أنذا الآن رجلٌ عجوز ضعيف . ولكن هذا لن يعفينى من قسمى ، فإن لم أستطع أن أنتقم منه بقوة يدى ، فسأنتقم منه بوسيلة أخرى .

وسالت الدموع على وجه الرجل . فأخذ الخدم يسرّون عنه ويخففون

من حزنه . ولكنه ردّهم قائلا : سترحل روح هذا الوغد إلى الجحيم قبل الفجر . وسكت الرجال فلم ينطق أحدهم بحرف . ولم يعر ساقات هذه الكلمات انتباهاً ، فقد كان فكره مشغولا بالمغامرة المنتظرة . وكان يتعجل الوقت ، ويخشى أن يظل هؤلاء الرجال يقظين عند حضور واطسون وأصدقائه . ولكن الحظ كان حليفه ، فقد اتجه كل رجل إلى فراشه . وبعد قليل ارتفع شخيرهم في فضاء الحجرة .



المغامرة

كان ساقات يقف فى ركن مظلم مطلّ على النهر الصغير ، وهو ينظر إلى صفحة الماء . ورأى بعض الأنوار تلمع من بعيد ، فأرهف سمعه . وفجأةً فُتحَ باب حجرة الخدم ، وسمع ساقات صوت خطى تعبر المطبخ . وبعد قليل أطلّ وجه سام لى الشيخ . وتعجب ساقات لخروجه فى مثل هذه الساعة إلى حافة النهر . فقد تقدّم الرجل الشيخ ، دون أن ينظر حواليه ، ومدّ يده إلى حبل أحد القوارب المربوطة إلى الشاطئ ففكه . ثم ركب القارب ، وانطلق به عبر النهر ، حتى غاب عن الأنظار .

ولم يطلْ ساقات التفكير فى أمر سام لى ، وإن كان خروجه فى هذا الوقت من المساء قد حيره ؛ فقد التقطت أذنا ساقات بعض الأصوات ، وكان يبدو من صدّى الصوت أنه لأناس يتحدّثون بالإنجليزية فى صوت خافت ، فأدرك ساقات أن واطسون وزملاءه سيصلون بعد قليل . وحدّق النظر فإذا ظلّ أسود طويل ينساب على سطح الماء . وبعد لحظات كان قارب مملوء بالرجال قد رسا على الشاطئ .

وقال چيمى فى صوت خافت: هل كل شىء كما اتفقنا يا ساڤات ؟
وأجابه ساڤات : نعم يا سيدى ؛ فلقد نام الجميع ، والمفتاح معى الآن .

وقال چيمى : هيا أيها الأصدقاء ، وإذا حدث لنا حادث فأسرعوا بالعودة للقارب ، ولينطلق من ينجو منا ليخبرَ المسئولين .

و وثب الشبان فى خفة وحرص ، وقد لمعت عيونهم فى عزم وشجاعة . ونظر ساڤات إلى القارب وهم يتحرّكون نحو المطبخ ، فرأى المربية العجوز تجلس فى أحد جوانبه ، وعلى فمها ابتسامة تشجيع وإعجاب . ثم تناولت هذه السيدة المجدافين ، وأخذت تجدّف فى هدوء مبتعدةً قليلا على الشاطئ .

وسار الجميع فى خطىً بطيئة حذرة . يتقدمهم ساڤات ليدلهم على الطريق . وكان چيمى يحمل فى يده مصباحاً كهربيًّا صغيراً . وبرغم أن الشبان كانوا يمشون خفافاً لا تكاد تلمس أقدامهم الأرض ، كان يخيل لهم أن صوت أقدامهم كدقّ الطبول . وعبر بهم ساڤات غرَف النساء ، ثم مرّوا أمام باب غرفة شون ، واطمأنوا إلى نومه ، فقد كان شخيره مرتفعاً . ثم تحسسوا طريقهم فى غرفة الطعام خوفاً من أن يصطدم أحدهم بكرسىّ أو إناء . ولما وصلوا إلى باب غرفة الأميرة مدّ ساڤات يده بالمفتاح ، وأداره فى القفل، فانفتح الباب فى بطء .

ولما انفتح الباب اتجه چيمى بضوء المصباح الكهربىّ إلى أحد

الأركان ، بعد دورة قصيرة فى الغرفة ، فإذا بفتاة صغيرة لا تزيد سنها على سن ساقات ، وقد جلست إلى جانب جدار ، وكان وجهها محتقناً شاحباً ، وعيناها محملقتين نحو الباب فى انتظار .

ووضع چيمى أصبعه على فمه لكى يشير إليها ألا تتكلم ، ثم دعاها إلى أن تتقدم لتخرج . ولكن الأميرة كانت عاجزة عن الحركة ، فتقدم إليها چيمى وعلى وجهه شبه اعتذار ، وحملها بين ذراعيه كأنها طفل صغير ، ثم اتجه نحو الباب .

وتقدم چيمى الرجال ، وهو يحمل الأميرة على ذراعيه . . . وعبروا غرفة المائدة دون ضجة ، ثم اجتازوا الممر . ولما أصبحوا أمام باب غرفة شون ، فتح الباب فجأة وبرز منه شون ، وقد حمل فى يده مسدساً ضخماً .

وتوقف الرجال حائرين ، واختبأ ساقات خلف إحدى الستائر . وقد توقع أن يسمع صوت طلقة المسدس فى أى لحظة . وحاول أحد الرجال أن يتحرك فاتجه إليه شون ، والمسدس فى يده قائلا : إذا تحرك أحدكم فإنه مقتول فوراً .

ولاحظ ساقات أن صوت شون غريب ، فقد كان يتحدث بصعوبة كأن شيئاً صلباً فى حلقه ، وكان على وجهه ظلال من الغضب والفزع . وفجأة رفع يده إلى عينيه فى ألم ، وسقط المسدس من يده الأخرى .

واندفع الرجال نحوه . ولكن چيمى واطسون أوقفهم قائلا : انتظروا فإن هذا أمر غريب .

وكان الرجل الصينى فى ذلك الوقت ينتفض فى غضب وخوف . ويصيح : النجدة ! إنى أموت ! النجدة ! ولكن صوته كان مكتوماً لا يكاد يسمع . وبعد قليل تهاوى إلى الأرض .

وتجمع الرجال حول الصينى ، وأدار چيمى المصباح إلى وجهه . ثم قال : لقد مات الرجل يا أصدقائى ، فيها بنا نخرج من هذا المكان الغريب ! أسرعوا !

ونظر ساقات إلى شون . وكان الرجل ملقى بجوار الجدار ، كأنه جوال دقيق ، وقد انفتح فمه فى بلاهة وألم ، ووقفت قطةٌ من قطط المنزل تتشمم شعره الأسود .

وعند ما نزل الرجال إلى القارب ، انتفضت المربية السيامية واقفةً . وقد تهلل وجهها . ثم حملت البنت بين ذراعيها ، وأخذت تقبلها وتضمها إلى صدرها فى فرحة طاغية . وهمس چيمى للرجال : أسرعوا فليس لدينا وقت نضيعه . فأخذ بونزو يجدّف بمهارة ، والقارب يتوغل فى النهر . وكان بيت التاجر الصينى يختفى رويداً رويداً عن الأنظار . ثم دار القارب دورةً فى النهر ، واختفى حىّ السامبرج كله عن النظر .

وكان الصمت ثقيلا . ولم يكن لدى أحدهم الرغبة فى الكلام بعد هذه النهاية المدهشة للمغامرة الغريبة . وربما كانوا جميعاً يفكرون فى



أمر شون وموته المفاجئ الغريب .

وأشعل چيمى لفافة ، وقلده الآخرون . وكانت لفائفهم تبرُق فى الظلام ، وعلى نورها الخافت كانت تبدو وجوههم البيضاء الشاحبة ، وبدءوا يتهامسون فى صوت خفيض .

وأخيراً قال چيمى : كأن ما مرّ بنا حلم ، فقد أيقنت أننا من الهالكين عندما رأيت الرجل الصينى بالباب ، والمسدّس فى يده . ولكنه سقط ميتاً قبل أن يطلق طلقةً واحدة . وقال بيت : لقد كنت متأهباً لمهاجمته ، وإنى لأحمد الله أننى لم أفعل ، وإلا مات قبل أن أوجه إليه ضربة واحدة ، وكنت أنا سأعتقد أننى قتلته . وقال لارى ، وهو يمدّ قدمه فى أرض القارب : هل تأملتم فى وجهه حين نظر إلينا ؟ لقد كان يبدو عليه تعبير الدهشة والفزع للموت المفاجئ ، كأنه وجه رجل أصابته رصاصة مفاجئة فى الحرب .

وضحك أوستن كريج ، ثم قال : لقد كانت المغامرة تشبه قصّة سينمائيةً . فهذا چيمى البطل يحمل الأميرة وان بين ذراعيه . وأنتم أيها الشبان الأقوياء واقفون بين المناضد والكراسى ، وهذا الصبى ساقات مختف وراء ستار كحيوان برىّ صغير . كل هذا والرجل الصينىّ واقف أمامنا ، ومسدّسه الضخم فى يده . . . وفجأةً وقع الصينىّ ميتاً دون أن يحرّك أحد منا يده .

وعقب سامى على كلامهم قائلا : حقّاً ! لقد كانت المخاطرة غريبةً ،

فمن يصدّق أننا غداً ، أو اليوم صباحاً على الأصح ، سنعود إلى لعب الجولف فى النادى ، وكأن شيئاً لم يحدث ؟

وكانت الأميرة قد بدأت تنتبه من غفوتها . وتثوبُ إلى وَعيها . فلما سمعت بعض ما قاله الشبان قالت فى صوت خفيض : لقد كنت يائسةً من الخروج من هذا السجن . وكان الفزع يتملكنى كل صباح وكل مساء .

وسألها چيمى فى اهتمام : وهل تستطيعين أن تخبرينا بقصة الاختطاف ؟

وانتفضت الأميرة كأنها تذكرت حادثاً رهيباً ، ثم ابتدأت تحكى فى صوت خافت مريض : لقد أعطونى كميةً كبيرة من المخدّر ، ولذلك فإن عقلى غيرُ صاف ، ولا أستطيع أن أتذكر ما حدث بالدقة .

وحاولت الأميرة أن ترفع رأسها ، ولكن عينيها خبا ضوؤهما . ثم ألقت برأسها فى وَهن وتخاذل إلى صدر المربية . وسكتت مغمى عليها .

وعندئذ قال چيمى ، وفى صوته رنة إشفاق : لقد وصلنا إليها فى الوقت المناسب . ثم استطرد قائلا موجهاً الكلام إلى بونزو الذى كان يجلس فى مقدمة القارب : أين نحن الآن ؟ هل تستطيع أن ترى قصر « وات شنج » ؟

وأجابه بونزو : أجل ! هذا هو القصر . وأشار إلى قبة قصر عالية تلمع فى السماء .

وقال چيمى : لقد آن الأوان لأرسل إشارة إلى « مالكولم » الواقف على الشاطئ . فإذا ردّ على إشارتى بإشارة حمراء ، عرفت أنه قد اتصل بأبيها الأمير ، وأن الجميع فى انتظارنا على الشاطئ !

وأرسل چيمى إشارة من مصباحه الكهربىّ الصغير ، وكان الجواب إشارة أخرى بضوء أحمر انبعثت من الشاطئ . وصاح جيمس قائلا : اشكروا الله أيها الأصدقاء ، فقد انتهت مغامرتنا بسلام . ثم التفت إلى بونزو قائلا : اتجه بنا يا بونزو إلى مرسى القصر الملكى ، وهو يجاور قصر الأمير .

وفى تلك اللحظة كانت الأميرة قد أفاقت من غشيتها ، فرفعت رأسها وقالت :

الآن أذكر ما حدث : خرجت ذات يوم من القصر وحدى ، دون أن أستأذن أبى . وأخذت أمشى فى الطريق ، وأنا أنظر إلى واجهات المتاجر حتى وصلت إلى حىّ السامبرج ، ورأيت متجراً تزدان واجهته بتحف غريبة . فأخذت أتأملها إلى أن برز لى رجل صينىّ من داخل المحل ، وقال لى الرجل : إن لديه تحفاً غريبةً فى حجرة خلفية ، ودعانى لأراها ، فدخلت وراءه ، وإذا بى فى حديقة واسعة تتوسطها نافورة . وكانت الطيور الجميلة تغرّد على أشجار الحديقة ، فوقفت ذاهلةً أستمع إلى تغريد الطيور العذب . وفجأة أحسست أن شيئاً قد أُلقىَ على رأسى ، وأن عينىّ قد ربطتا من الخلف بقماش



سميك ، فحاولت أن أصرخ فلم أستطع ، وأغمى علىّ من الخوف .
وعندما أفقت وجدتُ نفسى ملقاةً فى غرفة بها رجال صينيون مختلفو السنّ والشكل . وكانوا يتحدّثون إلىّ بفظاظة وعنف ، ويسقوننى المخدّر بانتظام . وفى يوم استيقظت فوجدت نفسى فى مكان آخر ، وهو حجرة الرجل الصينىّ الذى أنقذتمونى من بيته .

ولما انتهت من حكايتها قال چيمى : الآن فهمت كل شىء . لقد اختطف الصينيون الأميرة ، وكان شون فى ذلك الوقت فى رحلته يهرب الأفيون ، وهى الرحلة التى قابل فيها ساڤات ، وسرّق منه الفيل الأبيض . فلما رجع شون من رحلته ذهب الرجال بالبنت المخطوفة إلى منزله . وهذا يؤكد لى أن شون كان رئيس عصابة التهريب والاختطاف . ولا بدّ أنه كان سيطلب فديةً من الأمير لقاءَ أن يردّ إليه ابنته . وإنى لفرحٌ جدًّا لميتته الغريبة هذه . ولا بدّ أنه مات مسموماً على يد أحد أعدائه .

وقال أوستن كريج : إن لهؤلاء الصينيين طرقاً غريبةً للتخلص من أعدائهم ، وكم أتمنى أن أعرف لماذا سقط شون ميتاً بهذا الشكل .

وعندئذ اتجه چيمى إلى ساڤات متسائلاً : هل لديك فكرة عن مصرع شون المفاجئ ؟

وأجهد ساڤات ذهنه فى التذكر ، ثم قال : لا أعرف بالتحديد ، ولكن الذى أستطيع أن أؤكده أن سام لى الطباخ كان يكره شون كراهيةً

عميقة ، وقد سمعته فى أول المساء يقول إنه سينتقم من شون انتقاماً مريراً قبل الفجر . ولكنى لم أعرْ ذلك الحديث التفاتاً لأنى كنت مشغولا بانتظاركم . وقد رأيت سام لى قبل مجيئكم بقليل وهو يدْلى قارباً فى الماء . وينطلق به فى النهر . وقاطعه چيمى قائلا : كفى أيها الصبىّ ؛ فإنك تساوى ثقلك ذهباً . لقد تسمم شون على يد طباخه . . . فلتذهب روحه إلى الجحيم !

وكان القارب يدنو من المرسى . ولاحت أشباح الواقفين على الشطّ فى الانتظار ، ثم رفعت الأميرة رأسها فى فرح : هذا أبى ! .

ونظر الرجال إلى حيث أشارت . فإذا بسرادق ضخم قد نصب ، وتصدّر الأمير الواقفين ، وكان الأمير رجلا مسنًّا . قد أطلق شعره إلى الوراء ، وأخذ الأمير يثبُ سلالم المرسى . وكان المستر مالكولم يقف وسط صفين من الجنود السياميين الذين يحملون الأعلام . وجدّف بونزو بأقصى قوته ، فاصطدم القارب بالشاطئ صدمةً خفيفة ، ثم هبت الأميرة . وألقت بنفسها بين ذراعى أبيها الأمير .

وانتشر الرجال على الشاطئ ، ووقف الجميع ضاحكين مستبشرين ، وأخذوا يثرثرون ويستعيدون حوادث المغامرة . أما ساقات فقد أدار وجهه للنهر ، وأخذ ينظر إلى الغابات الصغيرة والأشجار الممتدّة أمامه ، وهو يتشوّق إلى رؤية أهله وغابته . وهمّ أن يمضى وقد انتهت مهمته ، ولكن چيمى لمحه ، وهو ينهض واقفاً بجسمه الصغير ، وبشرته

البنية . ورأسه الوسيم . وشعره الأسود الداكن ، فلم يتمالك أن يهمس في نفسه : رعاك الله أيها المغامر الصغير ! فكم أنت شجاع وذكيّ ومنكر لذاتك !!

وهمّ الصبي أن يتحرّك ، ولكن چيمي أسرع إليه قائلا : إلى أين أنت ذاهب . أيها الأخ الصغير ؟ تعال معي ! فإن صداقتنا لا يمكن أن تنفصم .

وتردّد الصبي قليلا فقال له چيمي : ألا تريد أن تصحبني ؟ ستصبح أغنى طفل في سيام بعد أن تنال جائزتك . فماذا أنت فاعل بها ؟

وأجابه ساڤات : أظنّ يا سيدي أنني سأسعى كي أرى بو . ثم أذهب بعد ذلك لرؤية قومي في الغابة .

وبينما كانا يتحدثان اندفعت الأميرة ، وهي تلف ذراعيها على كتفي ساڤات ، وقالت : لن تذهب إلى الغابة يا أخي . بل ستصاحبني إلى قصر أبي . وتقيم معنا كشقيق صغير لي . وتمتم ساڤات بكلمات الشكر ، وتقدّم الأمير إليهم قائلا : إنك لعلى حقّ يا بنيتي العزيزة ، فنحن مدينون بنجاتك لهذا الصبيّ الشجاع ، ولذلك فسيأتي معنا . . . وسأخاطب الملك في أن يمنحه لقب نبيل . ولا شكّ أن الملك سيستجيب لرجائي حين يسمع القصّة . وعندما يكبر الصبيّ سنزوجه من أجمل أميرات المملكة .

ونظر ساڤات إلى الأميرة . ثم انحنى حتى مسّت ركبتاه الأرض ،

وقد لمس جبهته بيده ، وقال للأمير : إن أجمل أميرات المملكة هى ابنتك يا صاحب السمو !

وضجّ الجميع بالضحك . وتبسمت الأميرة وهى مطرقة .

وعندئذ قال چيمى : قبل أن نتحرّك من مكاننا أرجو أن نهتف جميعاً ثلاث مرات للصبي الشجاع ساڤات !

ووافق الجميع على اقتراحه . . .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٧٩٢٢	
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3460 - 5	ISBN

١ / ٩١ / ٢٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

